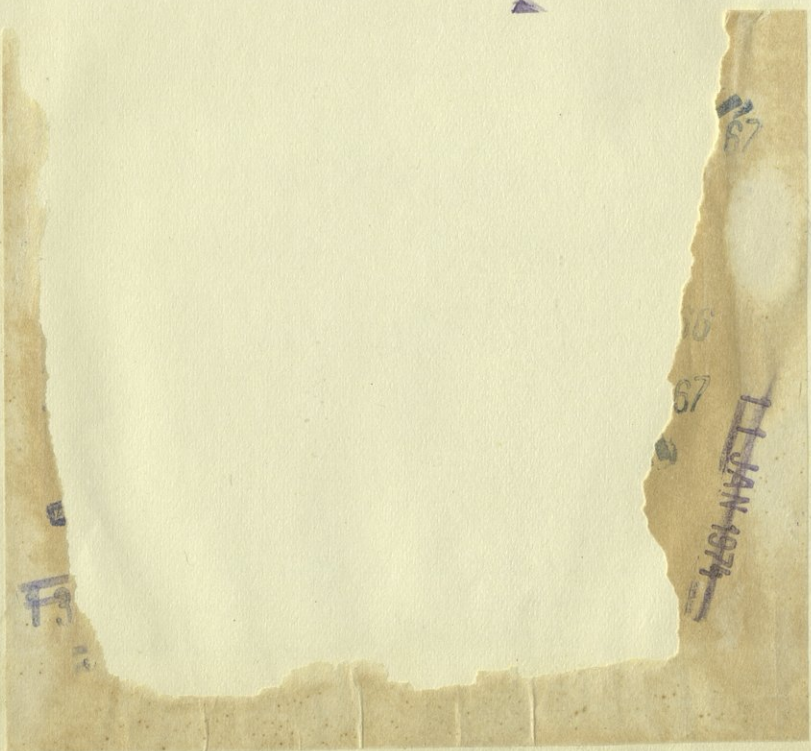


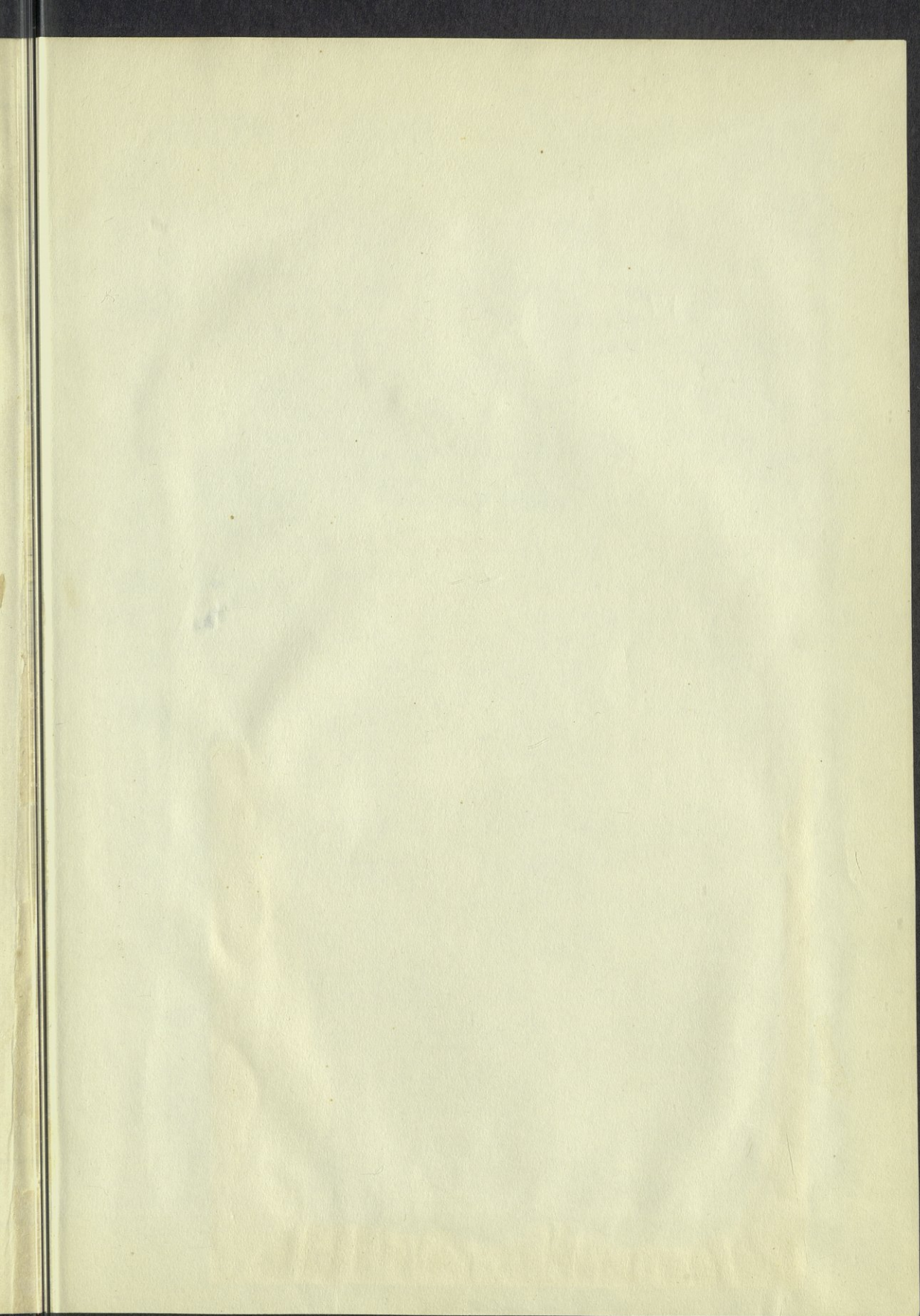
الطاهر

حافظ ابراهيم

تجليد
صالح الذفر
بيروت - المزرعة

مكتبة الميراث





حافظ ابراهيم

مكتبة الخزانة

محاضرات

عن

حافظ إبراهيم

حياته وشعره

ألقاها

أحمد الطاهر

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية]

١٩٥٣

الطبعة
دار مصر للطباعة

١٩٥٤

مكتبة جامعة بيروت
مكتبة جامعة بيروت



تاريخ

مكتبة جامعة بيروت

مكتبة

مكتبة

مكتبة جامعة بيروت

[تقديمات لجامعة بيروت]

7041



3041

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم أعني على الوفاء لحافظ ، فله في عظمى منة لا أنساها ، عرفته وعرفني وأحبهته
وأحبنى وشجعني على التزود من الأدب العربي ، وأوصاني بالإيفال فيه . ومات رحمه
الله فما وفاه الأدباء حقه من الذكر والإشادة بمنزلته من الأدب المصري المعاصر .

يسر لي معهد الدراسات العربية العالية ، الذي أنشأته جامعة الدول العربية بالقاهرة .
سبيل الوفاء له ، فخصتني بإلقاء محاضرات عن حافظ ، على طلبة قسم الدراسات الأدبية
فيه ، فقامت بذلك ما وسعني الجهد ، ابتداء من الثاني عشر من نوفمبر سنة ١٩٥٣ .
ولعل فيما جمعته من هذه المحاضرات نفعاً للطلاب ووفاء لحافظ وشكراً للمعهد ؟

أحمد الطاهر

يناير سنة ١٩٥٤

« لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا »

« جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة »

« حياة نفسه وحياة شعبه كحافظ رحمه الله »

الدكتور طه حسين

(حافظ وشوق)

دراسة الأدب الحديث

منهج

غايتهنا :

أصبحت دراسة الأدب في أمة من الأمم دراسة لذوق الأمة وإبانة لأقدار ثقافتها ومبلغ تأثيرها بالحضارة ، وكشفنا عما أخذت وما تركت من آداب الأمم الأخرى ، التي تتصل بها الأمة على أى وضع من أوضاع الاتصال . وجملة هذا دراسة لفكر الأمة وتطور تفكيرها .

وإذا اتجهنا إلى الشعوب العربية ، وأخذنا أنفسنا بدراسة أدبها ، فما ينبغي أن نفعل هذا دون أن نتساءل عن غايتهنا من هذه الدراسة ، وهل هي لذلك المتاع الذى يجده العلماء حين يقفون أنفسهم على العلم والدرس ، أم هي للتزود من العلم على سمته تزوداً يقوى العقول ويحصنها ، فتصبح قادرة على خوض معارك الحياة دون أن يتبين المعلم ولا الطالب نوع المعركة ولا زمانها ولا مكانها . أم هي لفرض ترسم سبيله جامعة الدول العربية حين أنشأت هذا المعهد ، وجعلت رسالته دراسة الشئون العربية المعاصرة .

ولقد أفصح عن هذا الغرض السيد ساطع الحصرى مدير هذا المعهد ، في خطابه الذى ألقاه في أمسية يوم السبت ٧ من نوفمبر سنة ١٩٥٣ ، ولعلنى قد أحسنت فهم مراميه ، إذا قررت أن دراسة الأدب العربى الحديث في هذا المعهد ، يجب أن تكون غايتها تقريبا في الأذواق وتواصلا في الاتجاهات ، وتجاوبا في المشاعر ، مشتركا ذلك كله بين هذه الأقطار العربية التي عبثت يد السياسة على أجيال ، بما بينها من أواصر وصلات — ودراسة الأدب الحديث في جميع الأقطار العربية صالحة لأداء هذه

الرسالة، وبلوغ هذه الغاية ، إذا أخذ الأساتذة والطلاب أنفسهم بأن يصلوا في بحوثهم ودراساتهم بين الفن الذى يدرسونه ، وهو الأدب الحديث ، وبين الأحداث الجارية والأوضاع السائدة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم دينية أم غير ذلك من الأوضاع التى جعلتها حضارة هذا القرن ، والتى بلغت من قوة التأثير مبلغاً تصيب به عقول الناس وقلوبهم ، فتعمل فيها عملاً واضحاً بيفناً .

أدبنا الحديث :

لم يعد الأدب نزوعاً إلى الجمال الفنى فى الكلام ، ولم تعد رسالة الأديب أن يدير ما تيسر له من المعانى فى أسلوب له من صنعة البديع حظ موفور ، بل إن الأدب فى هذا العصر ملائمة بين الجمال الفنى الخالد الذى لا يختلف فيه القدامى عن المحدثين ، وبين الذوق العصرى المائل فى قلوب أهل العصر وعقولهم ، وهذا الذوق هو الذى يتطور ويتغير بالمؤثرات التى سلف القول فيها .

فالأدب على هذا الوجه يجب أن يمثل نفس الأديب ، وأن يكون منسجماً مع ذوق العصر الذى ينجم فيه . والأسلوب أو القلب الذى يفرغ فيه ، هذا الأدب يجب أن يتأثر أيضاً بذوق العصر . وهذا العصر الذى نعيش فيه لا يقبل على الألفاظ المصقوفة والفقير المسجوعة ، ولا على ما كان مألوفاً فى القديم من تزويق وتنميق ، وإنما يقصد إلى الوضوح واصطناع اللفظ القوى الدلالة ، والعبارة التى تصيب المعنى من أطرافه جميعاً دون مداورة أو معاناة أو تكلف ، ويجد من أذواق الناس استجابة وطمأنينة .

ولعل خير ما عبر به عن هذا القصد ما قاله الدكتور طه حسين ، حين ذكر لصديقه ما يريد من المثل الأعلى للشعر . قال : « هو هذا الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقاً ، فيأخذوا بنصيحتهم النفسى من الخلود » .

امتدت الحضارة الغربية وأساليب الحياة الغربية ووصلت إلى الشرق ، فغيرت ، على وناء ، في عقول الشرقيين ووجوه تفكيرهم ، واختلفت هذه الأمم الشرقية في أقدار ما أخذت من هذه الحضارة ، وما تأثرت به في أساليب حياتها ، فبعضها كان يعرف من بحر وبعضها كان يمتح من بئر ، ولكنها أخذت منها بنصيب على أية حال . ولكن أذواق هذه الشعوب العربية تخلفت أو تباطأت عن التأثير بهذه الحضارة ، وأنفقت في هذا التخلف أو التباطؤ زمناً طويلاً ، ولذلك عشنا دهرًا طويلاً في حضارة غربية بأذواق شرقية . أو قل ، كنا غربيين محدثين في حياتنا ، شرقيين قدماء في تفكيرنا وفي أذواقنا ، وكان كذلك أدبنا : ففي أعقاب القرن التاسع عشر ، وفي مستهل القرن العشرين ، كان أدبنا لا يزال يمت إلى القديم بصلة قوية ظاهرة ، بل لقد كان أقرب إلى القدم منه إلى الجدة .

ولا تحسب أيها الدارس أن القديم منبوذ ، أو ينبغي أن يزرى به ولا يعتد بقدره ، ولا تحسب أنني أريدك على أن تكلف بالجديد دون القديم ، أو أن تنصرف إلى الجديد وتصد عن القديم . كلا لا أريد هذا وما ينبغي لأحد أن يوصى بهذا . ولكنني حدثتك عن هذه الصلة التي يجب أن تقوم بين الأدب وبين عصره ، وما نسيت أن أذكر لك أن في الأدب شعراً كان أم نثراً جمالاً خالداً يشترك فيه القديم والجديد ، تتداوله العصور والأمم ، دون أن يتحيف من جلاله أو ينتقص .

ولقد طالما ذكرنا الجمال والذوق فيما تحدثنا به إلى الآن ، ولا يبعد أن يسأل سائل ما هو الجمال وما هو الذوق ، ولا أزعج أنني أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال . ولقد وقف موقف الحيرة التي أنا فيها الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب بالاسكندرية إذ تساءل عن الجمال في كتابه (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده ص ١٢٠) . قال :

« ما هو ؟ ما صفاته وعناصره ، هل هو موضوعي تمكن مشاهدته وقياسه والاتفاق عليه أم هو ذاتي يختلف حسب مزاج سامعه أو رائيه » .

وهو حين عرض للذوق قال :

« إن علم الذوق في عصرنا الحاضر قد أصبح جزءاً من دراسة أوسع هي دراسة السلوك الإنساني في نواحيه العقلية ، أي دراسة المواهب الفطرية والمكتسبة في الإنسان — دراسة العناصر التي تتألف منها شخصيته من غرائز وانفعالات وعواطف وإرادة ومزاج وذكاء وتفكير . . . دراسة العقل الواعي والعقل الباطن ، وأثر كل منهما في الحياة والفكر والفن والدين والاجتماع . . . دراسة الإنتاج الفكري وصلته بمنشئه ، ثم مسالكه إلى قلوب دارسيه ومتذوقيه » .

هذا القول واضح الدلالة على ما يؤهلك لفهم المراد من كلمة الذوق ، وإن لم يكن تعريفاً محددًا للذوق ، وما ينبغي أن يكون هناك تعريف للذوق ما دام الذوق إحساساً لا مقياساً .

دراستنا :

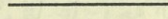
نحن نتصوب إلى دراسة شاعر من المحدثين هو الشاعر المصري « محمد حافظ إبراهيم » . فما سبيلنا في دراسته ، وما منهاجنا في نقده ؟

ينبغي فيما أرى أن ندرس الشاعر نفسه قبل كل شيء . . ندرس حياته الزمنية ، كيف عاش وماذا وقع له في حياته من الأحداث ، وما هي البيئة التي عاش فيها ، وكيف كان اتجاه الفكر في عصره ، وما هي الأحداث والمؤثرات التي كانت عاملاً مسيطراً على الفكر أو الرأي العام في عصره . ثم ندرس آثار هذا كله في نفس الشاعر ، كيف عملت في تكوين إحساسه وفي عواطفه وفي وجدانه وفي تفكيره ، ثم ننقل بعد ذلك إلى شعره لعلنا نجد امرأة صافية يتجلى فيها كل ما درسنا من حياة الشاعر ومن عواطفه . ونستطيع بعبارة أوجز أن نقول إننا ندرس حياة الشاعر الزمنية ، ثم حياته الوجدانية ، ثم حياته الشعرية ، ولعلنا نجد بين الثلاث تجاوباً وتلاقياً .

أحسب أن هذه الطريقة هي التي أرادها الدكتور طه حسين ، حين قال في حديث الأربعاء (ج ١ ص ٢٢٢ طبعة الحلبي) .

« الشاعر يجب أن يتمثل في شعره إلى حدٍّ ما . فإذا كان الشاعر مجيداً حقاً ، فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها بحيث تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيها بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدة ولينا ويتباين عنفاً ولطفاً ، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشعرية التي تمكنك من أن تقول هذا الشعر لفلان ، أو هو مصنوع على طريقة فلان » .

نخرج من هذا على أن أحكامنا على الشعر يجب أن تصدر مستنيرة بالأضواء التي تبعثها حياة الشاعر وشخصيته وعواطفه . وهى بذلك مقيدة بالزمن الذى عاش فيه هو — لا نحن — وإذا حاولنا أن نحكم على الشاعر بأحكام يلبسها الفكر الذى نعيش فيه نحن — لا هو — كان حكمنا بعيداً عن النصفه مجافياً لأصول النقد .



حياة حافظ

١

ألفنا أن نبحت في تراجم الشعراء عن السنة التي ولدوا فيها والتي انتقلوا فيها إلى دار البقاء . وأن نجهد في تعرف يوم الميلاد وتحديدده وما أحسب أن في هذا غناء ومنفعة وإن كان فيه متاع وطرافة ، وإشباع لشهوة النفس في تعرف الحقائق على أدق ما تكون المعرفة . وباحت الأدب قانع بأن يعرف عن بعض الشعراء والأدباء في أى قرن عاشوا ، لاتهم السنة ولا الشهر ولا اليوم الذى ولدوا فيه ، فما كانوا شعراء يوم ولدوا ولا عام ولدوا ، وهو قانع بأن يعرف العقد من القرن الذى ولد فيه بعض الشعراء ليحقق حادثاً بعينه ، أو واقعة تغير من أوضاعها عشرات السنين أو تعين على تحقيقها عشرات السنين . أما العناية بيوم ممات الشاعر فليس له شأن في مجال البحث الأدبي إلا حين نعرض للبحث عن شاعرين أيهما مات قبل الآخر أو حين تعرض لنا قطعة من الشعر أو من النثر فيحقق تاريخها وتنسب إلى شاعر ، ونريد أن نستوثق من ذلك فننتجه إلى تاريخ وفاته ، إن ثبت لنا على وجه التحقيق أو التقريب ليكون عوناً على تحقيق ما عرضنا له .

وهنا نحن أولاء نبحت عن مولد حافظ ، نريد أن نعرف يوم مولده بالتحقيق وما نجد إلى ذلك سبيلاً ، فالأستاذ أحمد أمين وصاحبه في مقدمتهم لديوان حافظ ، يقولون إنهم بحثوا في سجلات المواليد منذ عام ١٨٧٠ إلى عام ١٨٨٠ فلم يعثروا على اسم حافظ ، وقد اختاروا عام ١٨٧٠ مبدءاً للبحث جرياً وراء من ادعوا أن حافظاً ولد يوم ٤ فبراير سنة ١٨٧٢ ، وأولئك اعتمدوا على أن كشفاً طبيياً تعرض له حافظ إذ أريد استخدامه في دار الكتب ، قرر أن سنه تبلغ تسعاً وثلاثين سنة . وكان الكشف الطبي يوم ٤ فبراير سنة ١٩١١ . قال الأستاذة : « وهذا سبب واه كما ترى » . ونحن لو قدرنا أن حافظاً ولد حول هذا التاريخ ، فما يغيب عنا أن الناس إذ ذاك ما كانوا يعنون

بتسجيل مواليدهم ولا موتاهم ، على أننى على قلة اعتدادى بضبط هذا التاريخ عرض لى بيت من الشعر لحافظ قاله فى سنة ١٩٢٩ رجحت معه أن حافظاً ولد فى سنة ١٨٦٩ ذلك : —

وقد وقفت على السنين أسأله أسوِّفت أم أعدت حراً كفانى
من قصيدة يحى بها الشام فى حفل أقيم بالجامعة الأمريكية ببيروت مطلعها :
حيّاً بكور الحيا أرباع لبنان وطالع اليمن من بالشام حيانى
فلنقل لمن أراد أن حافظاً ولد سنة ١٨٦٩ م : ومن يدرى لعل اسمه فى ثبت من ولدوا
فى هذا العام فى مدينة ديروط بالوجه القبلى (مديرية أسيوط) وحافظ يقول إنه ولد
فيها فى (ذهابية) راسية بالنيل .

وكان أبوه إبراهيم أفندى فهمى ، من المهندسين الموكلين بقناطر ديروط ، وكان مصرياً
صريحاً فى مصريته . أما والدته فكانت من أسرة تمت إلى الجنس التركى أو ما يقارب
الجنس التركى من تلك الأمم الجركسية . ومات الوالد وحافظ طفل فى الرابعة ،
فانتقلت به والدته إلى القاهرة ، وأقامت عند أخيها محمد أفندى نيازى المهندس . فتولى
أمه وقام بتربيته وكان مقامهم بحى المغربلين ، وهو البقعة الممتدة إلى الجنوب الشرقى
من باب زويلة (بوابة المتولى) صوب قلعة الجبل . وألحق محمد حافظ إبراهيم بمدرسة
أولية هى المدرسة الخيرية وكانت قريبة من القلعة . ثم أدخل مدرسة القرية الابتدائية
وكانت فى ذلك العهد تشارف باب زويلة ، ثم التحق بمدرسة المبتديان القريبة من حى
السيدة زينب ، ثم للمدرسة الخديوية الثانوية الواقعة بدرب الجميز ، ولم يطل به المقام
فى هذه الأخيرة إذ انتقل خاله إلى طنطا إذ كان يعمل مهندساً للتنظيم بها .

وعاش الفتى فى طنطا عيشاً قوامه الفراغ إن صح أن يكون الفراغ قواماً لشيء —
فراغ من المال ، إذ لم يخلف له أبوه شيئاً ، ولم تكن أمه ميسورة الحال ، وما كانت الأم
وابنها إلا حميلة على محمد أفندى نيازى ؛ وفراغ من العلم فما بلغ حافظ من التعليم مبلغاً
صالحاً ؛ وفراغ من العمل فما كان أهلاً لعمل يزاوله أو يشغله ؛ وفراغ من الجاه فما كان

الجاه إذ ذاك إلا وقفاً على أسر لها من المال حظ موفور أو من السلطان قدر واسع أو من الجنسية التركية مائة وشيعة . وحافظ لم يكن في شيء من ذلك .

ومدينة طنطا إذ ذاك ولا تزال مثابة العلم في الوجه البحري . والجامع الأحمدي فيها جامعة كبيرة يجج إليها الطلاب من أنحاء الشمال والشرق والغرب . وكانت الدراسة إذ ذاك في المعاهد الدينية ومنها الجامع الأحمدي ، تجري على النسق القديم الجامعي . فللاطلب المنتسب إلى المعهد أو غير المنتسب ، أن يجلس إلى الدرس متى شاء وأن يختار من الأساتذة من يشاء . وله في هذا الخيار وفي هذه الحرية ما يقوم شخصيته ويطهّن نفسه ويحفز استعداداته العلمي ويعقد الصلة الفاضلة بينه وبين أستاذه الذي ارتضاه . كل ذلك متى كان الطالب مستعداً بطبعه وعقله لتلقى العلم والمثابة عليه .

فعل حافظ ما يفعله سائر الناس ممن يكون لهم حظ من العرفان ضئيل . فانظم في حلقة من حلقات الدرس بالجامع الأحمدي ، وكان ينتقل من حلقة إلى أخرى كما يشاء له مزاجه . وفي هذه السن التي تشارف الثامنة عشر ، أكب حافظ على دواوين الشعر يستظهر منها المختار ويقضى في ذلك عامة النهار . فإذا احتواه الليل جلس إلى الطلاب في حلقاتهم السامرة يروي لهم مما حفظ شيئاً كثيراً ، ويستزيدونه إنشاداً ورواية وراض نفسه على الشعر واستذكاره حتى جرى بالشعر خاطره وترجم عنه لسانه . وكان يصل ما انقطع من حبل روايته للشعر القديم ، بما يوحى به خاطره من شعر لفقته تلفيقاً ، ويزعم أن الشعر كله للقديمي الذين يروي عنهم فينال شعره مما نالت روايته من إعجاب ، ويقوم القتي سعيداً مغتبطاً بهذا التلفيق وبهذا التوفيق .

وضاق حافظ ذرعاً بهذه الحياة الفارغة وأحس أن خاله قد ضاق به ذرعاً ،

فكتب إليه البيهتين الساذجين :

ثقلت عليك مؤونتي إني أراها واهية

فأفرح فإني ذاهب متوجه في داهية

وهو نظم خفيف لا يوزن بميزان الشعر ، ولكنه يدل على الكثير من روح هذا الفتى ومن إحساسه ومن استعداده ومما كان يشغل خاطره وهو فتى في طرأة السن . وذهب وأقام في منزل أحد طلبة العلم بالجامع الأحمدي ، ولم يلبث أن عاد إلى منزل خاله . وبدأ له أن يشتغل بالمحاماة ، وكانت في ذلك المهة لا تحتاج إلى تحصيل علم أو حيازة شهادة ، إنما عماذاهاطلاقة اللسان وقوة الحججة وجرأة الدفع وجهارة الصوت . وعند حافظ من هذا شيء كثير فلقى حافظ نجاحاً في كثير من القضايا التي تدرس بها . ولكن هذه النفس المرورة البائسة اليائسة ، قد ترسبت فيها خلال منها الضيق بكل شيء ، وسرعة الملل وحب الانتقال من حال إلى حال ، والبرم بكل قيد من هذه القيود التي تفرضها الحياة على الناس أو يفرضها الناس على الحياة . وتنقل حافظ من مكتب الشيخ الشيعي المحامي ، إلى مكتب أبي شادي إلى مكتب عبد الكريم فهم . ثم ترك مهنة المحاماة وقد أقل نجمه فيها بأنساً كما كان وكما سيكون .

ثم التحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة وكانت تستقبل عهداً جديداً توسعت فيه أرجاؤها . فاغتنم حافظ هذه السمة ، وقد رأى كل مجال يضيق به . وتخرج من المدرسة الحربية عام ١٨٩١ وسنة إذذاك على ما أعتقد ٢٢ سنة . وظل حافظ بالجيش ثلاث سنين وشهرين وأياماً . ثم التحق بالبوليس ، وكان معهوداً أن يختار ضباط من الجيش ليقوموا بأعمال البوليس الذي لم تنشأ له بعد مدرسة خاصة . وظل حافظ بالبوليس سنة وخمسة أشهر وثمانية أيام ، برم به البوليس وضاق ذرعاً بأعماله الشاذة وسلوكه المستهتر بكل شيء . وقد روى لنا رحمه الله قصة قال إنها كانت سبباً في إعادته من البوليس إلى الجيش قال :

« كنت نائماً في بيتي وإذا برسالة من شيخ البلد في قرية من قرى الشرقية — لعلمها الإبراهيمية — تقول (وقعت حائط وزهقت أرواح) . فانتقلت بغلس من الليل راكباً جوادى حتى وصلت إلى القرية . وراعى أن وجدت جداراً قد انقض حقا وقتلت تحته ثلاث دجاجات . قلت لشيخ البلد أين الأرواح التي زهقت فقال متلعنا : والله يا سيدى أنا تشاحنت مع نسائي وحلفت بالطلاق لأحضر البوليس

إلى هنا . وأخذت ألتبس الوسيلة لذلك حتى علمت أن جداراً قد وقع وماتت تحته ثلاثة أفرانخ ، فأرسلت هذه الرسالة ليهرع إلينا البوليس فأبر بالقسم العظيم — قال حافظ والله لتسكونن روحك إحدى هذه الأرواح التي زهقت ، كما تزعم ، وانهال على الرجل ضرباً حتى كاد يموت أو كاد ينفق كما كان يقول حافظ رحمه الله .

وعاد حافظ ضابطاً بالجيش ولكن محالاً إلى الاستيداع ، وظل كذلك خمسة أشهر ثم أعيد إلى الخدمة العاملة بإدارة التعيينات . وسافر إلى شرق السودان وظل هناك أربع سنوات وشهرين . ثم أحيل إلى الاستيداع مرة أخرى إذ اتهم بتأليب الضباط المصريين على رؤسائهم الإنجليز ، وبقاربج نار الفتنة والعصيان بين ضباط الجيش . ضاق حافظ كعادته بالجيش وضجر كتشنر ورؤساء حافظ من الضباط المصريين والإنجليز ، مما لقوا منه من عبث واستهانة بالفظم . وظل عاطلاً فارغاً في الاستيداع ثلاث سنوات ونصف سنة . ثم أحيل إلى المعاش في أعقاب سنة ١٩٠٣ وكان ذلك آخر عهده بالحياة العسكرية .

وهنا تلقى حافظاً مرة أخرى . تلقاه عاطلاً ممروراً يائساً محسوراً فقيراً مملقاً . ولكنه شاعر أديب وفي الأدب متعة للنفس وطماً نيفة للقلب . وقضى سبع سنين كان يسميها العجاف . انطوت فيها نفسه على يأس من الإنجليز أصحاب السلطان في الجيش وفي غير الجيش ، وأمل في القصر ، ولكنه بعيد المبال ، وثقة بالإمام محمد عبده لعله بالغ به غاية محمد عقباها . ولكن يد الأقدار تعصف بمعقد أمله ، فينتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى في عام ١٩٠٥ . فنتقطع بحافظ الأسباب وتوزع نفسه حسرات .

وظل على هذا الحال إلى أن كانت سنة ١٩١١ ، إذ أفاء عليه أحمد حشمت باشا نعمة وظيفة قدرها ثلاثون جنهماً في الشهر ، ينالها من دار الكتب المصرية . ويظل فيها أكثر من عشرين عاماً بقليل ، إلى أن يخلعها عنه اسماعيل صدق باشا ، إذ كان حافظ قد أطلق فيه لسانه ، كما فعل أكثر الناس في عهد رئاسته للحكومة إذ ذاك . ولم يعيش حافظ بعد إحالته إلى المعاش غير أربع أشهر ، إذ مات في يوم الخميس ٢١ من يولية سنة ١٩٣٤ .

تلك هى الحياة الزمنية لحافظ أو الحياة التى نبشها ، نتقفى مر السنين وما يقع للشاعر فيها من أحداث ، وما يوجهه إليه فيها الزمن من مسارب ومسالك . والذى يعطينا من هذا السرد التاريخى هو الأثر الذى تركته هذه الحياة فى تكوين شخصية حافظ وفى تكوين خلقه ثم فى شعره .

ويذهب على هذا ، أن نرسم صورة لهذا الشاعر ، على ضوء حياته الزمنية ، لئلا فيها ما يصاغ وما يتكون من خلقه وطبعه وتفكيره وميوله ، وما إلى ذلك مما يعنى به اليوم علماء النفس الذين يصلون برباط وثيق بين البيئة وأحداث الحياة ، وبين تكوين الشخصية وتسكييف الطبع وتوجيه السلوك والتفكير .

هو طفل يتيم فقير حرم حنان الأب ، وحرم من جو الأسرة الصالحة المستقرة ، التى تستطيع أن تعتمد على نفسها فى كسبها وفى سيرها قدماً فى الحياة .

وشب فخرم من التعليم ولم ينل منه قسطاً وافراً ، وتولى تنشئته أو جهد فى تنشئته خال له . وهذا الخال يضيق صدره بعصيان الفتى وبعشه وباستهانتهم بأقدار الأشياء ، والفتى يفسر ضيق الصدر بأنه استئثار المؤونة وكراهية لشخصه وبرم بتكاليف عيشه وأعباء تربيته . هذه ظروف تحيط بالفتى فتجعله شاعراً بمرارة الحرمان ، مبهضاً للمجتمع قلقاً فيه ، شاعراً بنقص فى منزلته عن منازل الناس .

ووجوه الكسب مغلقة فى وجه الفتى ، لأنه فقير لا يحمل شهادة ولا يعتصم بنسب أو حسب .

ويشب الفتى فى قلب القاهرة المعزية المصطنعة بألوان الحياة القاهرية الشعبية الصميمة ، التى لا نحسن التعبير عنها بغير اللفظ العامى المألوف « الحياة البلدية » فهذا الحى ، حى المغربلين والقرية والغورية ودرب الجمايز ، بأزقته الضيقة ودروبه المظلمة ومبانيه المتواضعة فى الجمال الفنى الشاخنة بعراقتها فى القدم . هذا الحى هو الذى يمثل

القاهرة أصدق تمثيل . فيه الحياة المصرية الصريحة في مصريتها ، الصاخبة في مضطربها . فيه المقاهى الشعبية أو البلدية — فقد يحولنا استعمال هذا اللفظ — العامرة الساهرة ، وفيه مجتمع أهل النكتة المصرية الساخرين بكل شئ في الحياة ، المستهينين بكل شئ . وإن عظم وجل المتلفين المال يصل إلى أيديهم ولو بعد كد وجهد .

وفي هذا الحى أضرحة المشايخ الصالحين والأولياء المقربين يلوذ بهم العامة وغير العامة ، تبركا والتماسا لطمأنينة النفس . ويتخذ الشبان وطلبة العلم ساحات مساجدهم مثابة للدرس والاستذكار والجدل العلمى . فهنا مسجد الإمام الحسين بن على وهنا جامع الفاكهاني وهناك جامع المرداني وهناك جامع المؤيد وفي نهاية المطاف بدرب الجمايز مسجد السيدة زينب ، وحول هذه المساجد شراذم من المتسولين وأدعياء الطريق وال دراويش وأدعياء الولاية والقرى من الله والوسيلة لأنبيائه ، أولئك يمر بهم أهل القاهرة ويهرع إليهم من فى الأرباض غداة وعشيا . فمنهم من يرثى لحلمم وتأخذه مظاهرهم ، فيدس فى أيديهم صدقة يحتسبها عند الله . ومنهم من يستنكر حلمم ولا يتخذهم مظاهرهم ويرى فيهم صورة ساخرة من صور الحياة فيمتخذهم أداة للتنذر والنكتة البارة المفذعة ، يرسلها عليهم وعلى من يعطف عليهم فى غير حذر ولا تورع .

ثم يرحل الفتى إلى طنطا فيجد فيها هذا المشهد ، أوسع مجالا وأنسح مضطربا وأكثر ازدحاما ، فالمسجد الأحمدي المذسوب إلى السيد أحمد البدوى تتعلق به حياة خاصة لفئة من الناس لا أحسب أن لها نظيراً فى أى بلد آخر ، اللهم إلا فى دسوق حول مسجد سيدى ابراهيم الدسوقى . فالأدعياء وال دراويش والمجازيب ومن يخذع بهم ومن لا يخذع ، والتجار المرتبطة أرزاقهم بالمولد الكبير والمولد الرجبى . وطلبة العلم الواردين من أقصى شمال القطر وأبعد أرباض الشرقية وأغوار البحيرة . أولئك جميعا يشتركون فى حياة خاصة مصرية ريفية خالصة فى مصريتها ، عليها مسحة من طبائع أهل المدن ومميزاتهم .

انصب عليهم حافظ من القاهرة فى سن المراهقة وفى غضارة الشباب ، فوجد فيهم صورة من الحياة القاهرية تنقصها كثرة المقاهى ، وزيد عليها حياة

تمت إلى الدين بصلة . فينغمس في هذه الحياة إلى حين ويأخذ منها بطرف ، ويحاول الاستقرار فيها والاطمئنان إليها ، ولكن لا يوفق فيما يحاول فيسخر منها حيناً ويضيق بها أحياناً ، وهو بين سخريته وضميقه تنطبع في نفسه صور وتتكون له طباع . ثم يذتقل إلى حياة أخرى حبيسا في المدرسة الحربية ، جنديا مغلوبا على أمره . عليه أن يطيع وليس له أن يطاع ، وعليه أن يخضع لكل أمر ولكل نظام وما أكثر الأوامر والنظم وما أقساها . ولا يستطيع أن يرسل نفسه فيما ألفت من حرية وانطلاق . ويجتمع في المدرسة الحربية بشبان لكل واحد منهم أسرته المعروفة ، منهم من يمت إلى الأسر التركية الفاتية الذكر في حياة مصر إذ ذاك ، ومنهم من يمت إلى الأسر الريفية صاحبة العرافة في الأصل والجاه والمال ، أما هو فليس له من ذلك قليل ولا كثير .

وبرى في المدرسة الحربية جوا يسيطر عليه اللون الإنجليزي الظافر بالطغيان على اللون الفرنسي الحائل ، وكلاهما قد غلب اللون التركي المنشبث بالبقاء المعترجا بينه وبين الخلافة العثمانية من صلة . والألوان الثلاثة تحاول أن تمحو اللون المصرى الحبيد إلى نفس حافظ ، والذي ألقه ونشأ بين أعطافه ، منذ فتحت عيناه على الدنيا . فيضطرب الفتى بين هذه الألوان ويظل في المدرسة الحربية يسخر من هذه الحياة حيناً ويسخط عليها أحياناً ، ولكنه كاظم غير قادر على الإفصاح . وهو بين سخريته وسخطه تنطبع في نفسه صور وتتكون له طباع . ثم يزوج به في زمرة الضباط في مصر والسودان فيجد أحزاباً وشيعاً . هذا فريق منهم يمت إلى التركية صاحبة السلطان الروحي والسياسي فيملو بها وينفج وهذا فريق يناصر الإنجليز أصحاب الكلمة العليا ، يباهى بذلك ويطنى . وهذا فريق يناصر الخديوى فيما يشجر وما يشجر من خلاف بينه وبين كرومر وكنتشنر ، وفيما شجر وما يشجر بينه وبين السلطان التركي ولكل وجهة هو مولياها .

ويضطرب فتاناً بين هذه التيارات والنزعات ، ولا يستقر على حال . وتبدأ الفكرة السياسية تتبلور في نفسه لتتخذ شكلاً أو لتظل متميعة حائرة لا شكل لها

وكان طبيعياً أن لا يستقر الفتى في حياته العسكرية ، فيظل كارهاً مكروهاً يحاول أن يستعيث بأهل الحول والطول لا ينافه من قسوة الجندية وجفاف السودان ، وآلام الغربة وأغلال الظلم وقيود تحد من حريته وانطلاقه . إلى أن يقام له ذلك فينطلق منها إلى القاهرة وهو خالى الوفاض لا يملك إلا قريحة الشعر ولكنه يريد أن يعيش بها وعليها وما فيها من غناء .

يرتقى في أحضان طبقة من الناس تقدر الأدب تقديراً متفاوت قوة وضعفاً ، وتقدر الفتى لخفة روحه ورقة ظله وسخريته من الحياة وتندرته على أوضاعها واستهانتها بقصاريفها . وهو هذا الشاب الذى يملأ المكان بشراً وسروراً ومرحاً ، ويجود عليه بعض هذه الطبقة من الناس جوداً لا يفسده من ولا أذى ولا تسببه ذلة ولا استجداء . ويتلفت الفتى الشاعر ليجد سوقاً للأدب تنفق فيها بضاعته ويجد فيها متنفساً لكرهه ومجلاً لانطلاق حريته فإذا أمامه ثلاث أسواق : سوق مصرية أزهرية لاتعنى بنشر الأدب وإذاعته ، أو لاتجد الوسيلة لنشر الأدب وإذاعته . تنطوى على نفسها وتتنع بالرواية والحفظ وإجادة الإنتاج وتنفق جهداً كبيراً في نقد الأدب القديم نقداً فيه كثير من التزمّت والتقيّد بما جرى عليه القدماء في نقد الشعر . فقواعد النحو والصرف وأقيسة البلاغة وأصول اللغة تسيطر على الناقد . وتخضع جمال الشعر لأحكامها أو تقدر جمال الشعر بمقاييسها . والفتى الشاعر لا يملك من هذه البضاعة كثيراً ولم يحصل من العلم بها قدراً صالحاً يؤهله لمجاراة أهل هذه الطبقة في أساليب تقديرهم للأدب . ولكن له بهم صلة قديمة ، ألم يجلس إلى حلقات الطلاب والأساتذة في الجامع الأحمدي ؟ ألم يشارك في جدل طلبة علم النحو وأساتذته حول (فاء السببية) و (حتى) وأوجه قراءة البسملة ؟ ألم يقرأ معهم ابن عقيل والأشمنوني ؟ ألم تتردد على سمعه أسماء سيدييه والكسائى وابن جنى ؟ ألم يحفظ معهم متن الخريدة وما عليه من شروح وما حول أبياته من جدل في الفهم والدلالة ، وهو بعد هذا وقبله وثيق الصلة بالأستاذ الإمام محمد عبده ، معجب به منصرف إلى هذا الإعجاب بكل قواه ! لهذه الذكريات التى انطبعت

في نفسه لا يفتر حافظ عن الاتصال بالأزهريين ، ولا يني عن حضور مجالسهم ، ولكنها لا تشفى غليله .

ويجد سوقاً أخرى اتصلت بالقصر وتزلت إليه وظفرت بالقرب منه ، وهذه امتنعت على حافظ وصدت عنه لا لأن سدناتها من أقصى حافظاً عن أسرارها ، ولكن لأن حافظاً قد أحاطت به ظروف سياسية منذ طرده من السودان ، ومنذ تعلقه بالاستاذ الإمام ، ومنذ مفاصلته العداء للإنجليز جعلته غير مرغوب فيه في القصر وأغلقت في وجهه السبيل إليه . وحافظ بمظهره وأسلوب حياته وقر به من الدماء في معيشته وسلوكه ، وبعده عن الحرص على أوضاع القصور وتقاليدها لا يصاح لأن يدخل من أبوابها أو يكون من رجالها المقربين .

وظهر حافظ بسوق ثالثة تذيب الأدب وتذشره في الجرائد والمجلات ، وتكسب الأديب شهرة وتيسر له العيش . وهذه السوق يقوم عليها الشوام . والشوام لفظ كان ولا يزال يدل بين أهل مصر على اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين . ويرتبط حافظ برباط الألفة والمودة الصادقة مع الشوام ، على تباين مواطنهم ومذاهبهم ، فيجد صدراً رحباً من أصحاب الأهرام ومن أصحاب المفتطف الدكتورين فارس نمر ويعقوب صرّوف . ومن سليم سر كيس وداود عمون وشبلى شميل وخليل مطران وجورجي زيدان وأمين تقي الدين وغير هؤلاء ، ممن كانت أسماؤهم لامعة في سماء الأدب المنشور في ذلك العصر . ويفرق الشوام في حبه والارتباط به ، ويفرق حافظ في حبهم والارتباط بهم ، حتى يقيموا له حفلات التكريم . ويطلق حافظ الشعر القوى الخالص في التقنى بجمال بلادم والاعجاب بجهدهم وكدم في سبيل الرزق . ويرتفع اسمه في سماء الأدب العربي في مصر وفي الشرق العربي . ولا يفتر حافظ عن إرسال الشعر قويا رصينا في كل حدث من الأحداث تعني به هذه البلاد التي تجمعها رابطة اللغة العربية . وهنا تتولد في نفسه فكرة الوحدة العربية ورابطة الشعوب العربية ، وتتردد في خاطره هذه الأسباب والعلل التي قعدت باللغة العربية عما كان ينبغي أن يكون لها من منزلة وشأن .

فإذا بلغ حافظ هذه المنزلة من ذبوع الاسم وانتشار الذكر ، وتحدثت عنه المجالس والصحف والمجلات ، وجد السبيل مفتوحة أمامه ممهدة له ، ليطرق مجالس العلماء الأزهريين وأبواب الأعيان المشهورين وندوات الأدباء الظرفاء من المصريين وغير المصريين ، لا يجد في ذلك حرجاً ولا عناء بل يجد ترحيباً ولقاء حسناً .

هذه مجالس الشيخ الإمام محمد عبده حافلة بالعلماء الأزهريين ، من أصدقاء الشيخ ومن تلاميذه ومن غير أصدقائه وتلاميذه . فيهم الشيخ عبد الكريم سلمان والسيد علي البيلاروي والشيخ محمد نجيت والشيخ سليم البشري والشيخ محمد حسنين مخلوف والشيخ محمد شاكر والشيخ علي يوسف وغير أولئك كثير .

وهذه طبقة الأعيان والزعماء فيهم محمود باشا سليمان ، وسليمان باشا أباطة ، ومحمد بك بيرم ، وأحمد حشمت باشا ، وسعد زغلول باشا ، وقاسم أمين بك ، ومصطفى كامل باشا .

وهذه طبقة الظرفاء الأدباء الذين يفسحون المجال لحافظ ، ويجدون فيه الأنيس الظريف والشاعر الخفيف الظل . يتبادلون معه الفادرة ويطراشقون بالنكتة ، فيهم محمد البابلي وإمام العبد وحفني محمود سليمان وعلي محمود سليمان وعبد العزيز البشري وسليمان فوزي .

وتظل هذه الطبقات من الناس تتلقى حافظاً أو تتلقفه ، ويسلمه جيل منها إلى جيل حتى ينتهي أجله .

وبين هذه الطبقات وهذه الأجيال ، يعلو ذكر حافظ ويرتفع اسمه ويخلد ذكره كشاعر مصري صميم فيه كل هذه الخصائص التي تحقق له اسم الشاعر المصري الصميم . ثم يسدى إليه أحمد حشمت باشا ناظر المعارف ، نعمة لا ينساها حافظ ، فيختار له منصبا حكوميا في دار السكتب المصرية التي كانت معروفة إذ ذاك بالكتبخانة الخديوية فيتغير مجرى حياته من حيث نظامها وجريانها في وضع رتيب ، كالذي يأخذ به أنفسهم موظفو الحكومة . أما نفسه وتفكيره وطبعه فلا يتغير منها شيء .

بل إن الملل وضعف المثابرة والاستهانة بالعرف والتقليد ، كل ذلك لا يزال قائماً في طبع حافظ. ينمو ويبدو في حرية وانطلاق . ولقد كان يقضى أكثر وقت العمل في القهوة العثمانية ، المواجهة لدار الكتب محل عمله . يشرب الشيشة أو يدخن السيجار ، فإذا ألم بمكتبه ساعة أو بعض ساعة قال لخادم بالقهوة « إذا سأل عنى سائل فقل له راح المكتبخانة شوية وجاى » ، كأن مقامه الأصيل بالقهوة وإلمامه القصير بدار الكتب .

وتتقدم به السن فيصاب بداء المعدة وتكثر وساوسه ، ويتقرب الموت في كل ساعة . ويلتمس الدواء في بطون الكتب القديمة كقذكرة داود الأنطاكي ، وكتاب الرحمة في الطب والحكمة ، ولكنه لا يصبر على دواء ولا يقيم على حمية . وينعقد لسانه عن إرسال الشعر فترات تطول وتقصّر ، لأن الوظيفة الحكومية ألهته أو دافعه عن إرسال الشعر ، ولكن لأن المرض ألح عليه وعكر صفاء ذهنه وعقل لسانه . والقول بغير ذلك يخالف الواقع .

٣

ما هذه الأحداث والأوضاع السياسية التي كانت قائمة في مصر خاصة وفي الشرق ، والتي كانت تحيط بحافظ. ويقع عليها سمعه وبصره وتقطع آثارها في نفسه ، ويتحرك بها خاطره وينطلق بها لسانه شعراً مصرّياً ، صادقاً قوياً أو مدارياً ضعيفاً أو مجارياً تياراً أو محاذراً سلطاناً . لو تتبعنا تاريخ مصر والشرق منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين ، وتعرضنا لما في هذه الحقبة من أحداث سياسية وأوضاع اجتماعية ، لخرج بنا البحث عن الدائرة التي رسمناها لأنفسنا . ونحن نؤرخ تاريخاً أدبياً لشاعر ، ولكن بحسبنا أن نلم بأطراف من ذلك نتصل بحياة الشاعر ولها في حياته أثر وفي شعره ذكر .

كانت مصر في شطر كبير من حياة حافظ ، ولالية عثمانية تخضع لسلطان الخليفة العثماني

السياسى والروحى . وتتبع الدولة العثمانية تبعية لها صورة حائلة ضعيفة ، من هذه الصور التى تبثدها السياسة فترسم خطوطها غير واضحة . وهى خاضعة للاحتلال الانجليزى الذى فرض عليها وظل جاثما عليها فى صور مختلفة ، لاتزال منها آثار باقية إلى اليوم تحتضر وتلفظ الأنفاس الأخيرة بين يدى هذه الثورة ، التى لم يتح لحافظ أن يشهدا .

واستمرت صلة مصر بالدولة العثمانية ، إلى أن قطعها الإنجليز قطعا حين شبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ . وأقصى عن عرش مصر الخديوى عباس الثانى . وانفردت إنجلترا بالسيطرة على البلاد سيطرة سندها القوة الغاشمة ، وعدوان القوى على الضعيف .

إلى أن كانت سنة ١٩٢٢ إذ صدر تصريح ٢٨ فبراير ، الذى يعترف باستقلال مصر وسيادتها ، على يد المرحوم عبد الخالق ثروت باشا رئيس الوزراء . ولكنه ميثاق لم تغفل به مصر من قبضة السلطان الإنجليزى .

فمصر إذن مرتبطة بدولتين إحداها الدولة العثمانية والأخرى الدولة الإنجليزية . وهى بحكم هذه الرابطة تتأثر بما يقع فى الدولتين من أحداث ، وما تحدثه الدولتان فى مصر من آثار .

ولهذه الأحداث وهذه الآثار صداها فى نفس حافظ ، يتأثر بها ويتحدث عنها ويطلق شعره فيها .

وتئن الدولة العثمانية وشبابها من حكم السلطان عبد الحميد واستبداده ، وأفاعيل جواسيسه . وتتكون هناك أحزاب تناوئه وتنابذه وتطالب باستمئاع الشعب بالدستور وخلع هذا الطاغية . فيتم لها ذلك فى أوائل سنة ١٩٠٩ ، ويخلع السلطان عبد الحميد وينصب على عرش تركيا السلطان محمد رشاد الخامس خليفة المسلمين . وتظل هذه الخلافة قائمة فى ملوك آل عثمان ، إلى أن تخلع عنهم على يد مصطفى كمال فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وفي ظل الخلافة الإسلامية للملك آل عثمان ، تقع الحرب بين تركيا ، التي كانت تبسط سلطانها على الجزيرة العربية وعلى مصر وعلى جزء من شمال أفريقيا (طرابلس) ، وبين إيطاليا التي تهاجم طرابلس الغرب وتحتل شواطئها وتنقم من الأتراك ، بإطلاق النار على ميناء بيروت . وتنتهي هذه الحرب باحتلال إيطاليا لولاية طرابلس ، احتلالاً لم يتجاوز الأرباض التي تتأخم البحر .

وبحكم هذه الصلة السياسية والروحية القائمة بين مصر وتركيا ، يأسى المصريون لكل فاجعة تحل بتركيا ، ويفرحون لكل نصر تحرزه ، وتجاوب أصداء الحوادث التركية في الأجواء المصرية .

وتتكون في مصر أحزاب سياسية تبعاً لهذه التيارات ، التي تتقاذفها وتعمل فيها . فالحزب الوطني الذي يتزعمه مصطفى كامل ومحمد فريد ، يطالب لمصر استقلالها التام ولا يجاهر بالعداء للدولة العثمانية . ولكنه يفاوىء الإنجليز ويفاوىء من يمالئ الإنجليز أياً كان . والخديوى الجالس على عرش مصر ، والذي بينه وبين العميد البريطاني في مصر جفوة وعداء ، يضطر أحياناً لمداواة العميد البريطاني ، فيقف منه الحزب الوطني موقف المعارضة . ويجنح أحياناً لمجاراة الشعور المصري الوطني فيهادنه الحزب الوطني ويتقرب إليه . ولا بد للخديوى في هذه المواقف من حزب يؤيده ، وهنا يظهر حزب الإصلاح ، ويتزعمه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد . والإنجليز لا يستطيعون أن يقفوا من الحزبين موقف الطمانينة ، فلا بد لهم من حزب يجارى سياستهم ويؤيد قوتهم . فينشأ حزب الأمة هزيلة ضعيفاً ولا تلبث هذه الأحزاب أن يغييها الزمان ولا يستطيع البقاء منها غير الحزب الوطني . وهو يبقى لتجري عليه سنة السكون ، من ضعف يعوقه أحياناً وقوة تحركه أحياناً ، وأحداث تنافسه يوماً وتحذله يوماً . وتقوم الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، فيقطع الإنجليز كما قلنا صلة مصر الباقية بالدولة العثمانية قطعاً حاسماً ، ويزيحون عن عرش مصر خديويها عباس الثاني ، وينصبون مكانه الأمير حسين كامل سلطاناً على مصر ،

في ديسمبر سنة ١٩١٤ . إلى أن ينتقل إلى رحمة الله في أكتوبر سنة ١٩١٧ .
ويخلفه فؤاد الأول .

ولا تنتهي الحرب في أعقاب عام ١٩١٨ ، حتى تقوم ثورة ١٩١٩ تفادى باستقلال مصر وتجابه الإنجليز بعداء شديد ويصلب عود الإنجليز في قمع الثورة بما لهم من وسائل ، بعضها العنف الشديد وبعضها الملائنة والمهادنة . ومن وراء ذلك كله محاولة تفريق الكلمة ، وبث العداوة والبغضاء بين طبقات الأمة ، والماطلة في الوعود وقد كانت تلك أداة صالحة في يد الإنجليز في حياتهم السياسية ، يصطفعونها منذ أمد بعيد . وتنشأ الأحزاب السياسية في مصر أثراً من آثار هذه السياسة . فسعد زغلول يتزعم حزب الوفد . وعدلى يكن يتزعم حزب الأحرار الدستوريين . ثم يذشأ حزب الاتحاد ليناظر القصر ويحميه من قوى هذه الأحزاب . ويشهد حافظ في حياته هذه الأصوات جميعاً فيثأثر بها ويرسل شعره في الكثير منها .

وفي غمار هذه الأحداث السياسية المصرية ، تقع بتركيا وبمصر والسودان ، أحداث اجتماعية يبرز فيها رجال لهم في السياسة والاجتماع شأن مذكور . يتيقظ لها حافظ بوعيه المصري ، ويرتبط ببعض هؤلاء ، فيفرق في الصداقة أو يفرق في العداوة ، ولا يعتقل لسانه عن إطلاق الشعر في هذه الظروف ، فهو شاعر يحس بما يحس به المواطن الذي أرهف حسه للأحداث .

وحياة حافظ التي جرت تحت هذه الظلال السياسية العنيفة ، لم تنعم بحرية الرأي يوماً ما . فبطش الإنجليز لا يفتأ قائماً ، وجواسيس الأحزاب تظل عاملة ، والتهالك على السلطان والنفوذ بين الأحزاب يبلغ أشده فلا يرقى حزب إلى مقاعد الحكم ، حتى يبطش بأنصار من تخلى عنه ، بطشاً لا يتورع عن أخذ الناس بما يقولون وما يكتبون وما يذشرون أخذاً شديداً مرهقا . والصحافة في أغلب هذا الزمان لم تعد لها جلالة ، ولم تنعم بحرية . وأرزاق الناس مرتبطة بسلطان الحكام والوزراء وأصحاب القوة من أولئك الذين ذكرنا .

فلا عجب إذا كان حافظ ذلك الشاعر الفقير ، يهتز قلمه بمدحه لمن لا يحب ،
أو لمن لا ينبغي أن يمدح . ولا عجب إذا سكنت لسانه حيث كان ينبغي الكلام ،
أو نطق حيث كان ينبغي السكوت .

هذا هو الجو الذي عاش فيه حافظ . وارتبط فيه بالبارزين الأعلام ، في مصر
وفي غير مصر من رجالات ، كان لهم أثر في الحياة السياسية والاجتماعية . وأتيح له
أن يجالس أولئك في مجالسهم الخاصة ، وأن يرتبط معهم برباط ، وأن يكون لهذا
الرباط أثر في نفسه ثم في شعره .

{

هذا هو الجو الذي عاش فيه حافظ ، وهذه هي البيئة التي انغمس فيها . وكان
لهذا الجو وهذه البيئة أثر في نفسه وفي تفكيره وفي شعره .

ومعرفة البيئة ضرورية في نقد كل شعر في كل أمة في كل جيل . . ولكنها
الزم في مصر على التخصيص ، والزم من ذلك في جيلها الماضي على الأخص . ذلك
ما يقول به الأستاذ العقاد ، وهو حق واضح ، وسنجد لهذه البيئة أثرها في حافظ حين
نعرض لشعره ومكانته .

وسنجد شاعراً مصرياً كما وجدنا حياته حياة مصرية ، وكما وجدنا نفسه نفساً
مصرية . ولا تكمل دراسة البيئة التي لها هذا الأثر في ميزان شعره ، دون النظر في
حظ الشاعر من العلم أو حظه من الثقافة كما نقول في هذه الأيام .

نحن نعلم أن حافظاً حصل من علم المدارس ما يحصله طالب فرغ من مرحلة
الدراسة الابتدائية ، وأخذ يبسّر من دراسة المدارس الثانوية ، وانتقل إلى دراسة
الجنسية . وليس في هذه الأقدار ما يصلح لأن يعتد به في موازين المعرفة وتقدير
الثقافة ، وليس فيها ما يعين الاستعداد الفطري للشاعرية . ولكنه قرأ كثيراً في

كتب اللغة والنحو والصرف والأدب ، وتزود من ذلك بزاد صالح وأخذ منه بخط وافر .
 أى أنه وسع معارفه بكثرة الاطلاع ومداومة القراءة وإطالة النظر فى كتب الأقدمين .
 عكف حافظ على قراءة كتاب الأغاني ، وذكر لنا أنه قرأ الكتاب من أوله إلى
 آخره ، لم تفته منه كلمة ، عدة مرات . وقرأ دواوين الشعراء وعنى بتقديم بما تيسر له من
 مقابيس النقد ، وأهمها ذوقه الخاص . وكان أقربهم إليه شعراء الدولة العباسية كأبي
 نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء المعرى . وكانت له ذاكرة عجيبة يحفظ
 من قصائد هؤلاء الشعراء قدرا كبيرا ، وتسعه الذاكرة فى الاستشهاد بشعرهم حين
 يعرض له لفظ أو معنى دون كد ولا عناء .

وعكف حافظ على قراءة القرآن ، فروى لنا أنه قرأ عشرات المرات ، وحفظ منه
 مئات الآيات التى كان يجد فى لفظها وتركيبها ما يبهره ويحلو لذوقه
 وانتظم كما قلنا فى دروس الأزهرين بالجامع الأحمدي بطنطا ، كما استمع
 لدروس الأستاذ الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن وعلم التوحيد . فىكون بذلك
 قد حصل شيئا نستطيع أن نسميه الثقافة الأزهرية أو الدينية
 وتزود من أحاديث المجالس التى كان يغشاها بذخيرة من الآراء العلمية
 والاجتماعية والمعلومات العامة ، التى كان يهضمها بذكائه الفطرى ويقلب النظر فيها على
 أضواء ترسلها عليها الصحف والمجلات المتداولة . ثم يكون له فيها رأى يختاره لنفسه
 فيحدثك به ، وكأنه عالم فاحص متمرس . وكان له من صحبه من يزوده بنتاج الفكر
 الغربى فيطالع على ما يترجم من الإنجليزية أو الفرنسية . وينظروا فيها نظرة لم تبلغ
 به حد التأثير بأساليب الفكر الغربى ، ولا العلم بمناهج التفكير فيه .
 وحظ حافظ من العلم باللغة الفرنسية قليل ، فما كان يستطيع الكلام بها بطلاقة
 وما كان يحسن فهم أساليبها إلا مستعينا بغيره ، لذلك كانت ثقافته عربية خالصة ولكنها
 ليست مقصورة على القديم .

أما أخلاقه التي صاغت هذه الحياه التي وصفنا ، فأظهر ما فيها ملاله وعدم استقراره على شيء رتيب . فهو لا يطيل البقاء على شيء ، سريع الضجر إذا رانت عليه حالة ، ولكنه ضجر مكبوت لا يلبث أن يكون استهانة واستخفافاً بما أضجره . وهو قليل الثقة بأعمال الناس ، فقل أن يحدثه محدث بما فعل أو ما سيفعل حتى يسخر منه . ولذلك لم يكن يغالى فى الاعتداد بأقدار العظماء الذين عاشوا فى عصره ، ولم يكن يأبه لما يحيط اسماءهم من إجلال وإكبار . وأفضت به هذه الخلة إلى أخرى ، فهو لا يهاب كبيراً ولا يتهيب موقفاً . ولعل هذه هى التي طوعت له التمكن من حسن الإلقاء . ولقد روى لنا أن السلطان حسين كامل لما انتابته العلة ، نصيح له الأطباء أن يسرى عن نفسه ويروح عن أعصابه بوسائل المرح والسرور والضحك . ولكن العُصاب الذى كان قد تمكن من السلطان ، لم يسمح لأحد بأن يجالسه ويضحكه أو يطمئن لمجلسه . غير أن حافظاً وقد دعى للقاء السلطان لم يهب الموقف ، وتبسط فى الحديث معه حتى لقد علت قهقهته وعلت قهقهة السلطان ، فسمعا كبير الأبناء الذى قال سمعت حافظاً يخاطب السلطان بقوله أبوك وجدك بكاف الخطاب المفرد ، وهو ما لم يكن أحد يجرأ أن يفعله .

وكان من آثار ضجره وملله ، أن تعثر فى كثير من عقائده السياسية والاجتماعية وتردد فيها بين أطرافها ، أو يئس من غاياتها ومن القائمين بها . وكان من آرائه فى سياسة مصر أنها عبث أطفال يديره رجال . ولقد أثر عنه رحمه الله حين أشدّت الخصومة بين سعد زغلول وعدلى يكن ، ذلك يتزعم الوفديين وهذا يتزعم الأحرار الدستوريين ، أن قال « مسكينة هذه الأمة وقعت بين اثنين : واحد لا يسكت أبداً وواحد لا يتكلم أبداً » . وكان سعد كثير الخطابة فى الجمهور ، وقل أن سمع عدلى خطيباً .

ثم هو رجل سمح جواد متلاف ، لا يبق على شيء في يده ، ولا يدخر من قوت يومه لغده . طال عهده بالحرمان ، فلما تيسر له الرزق أوغل في الإسراف . لا يكاد يستهل شهر رمضان حتى يمد المائدة في ردهة داره لطعام الإفطار ، يفعل ذلك ثلاثين ليلة . وكان يصف حول المائدة أربعة عشر مقعداً ، وحق الجلوس إلى المائدة للأسبق في القدوم عليه ، دون دعوة أحد ، فإذا تموا أربعة عشر ضيفاً ، رفض إطعام من يزيد ، كائناً من كان . فإن كان صديقاً له أرسله بأمر منه إلى بيت أحد أصدقائه . وكان يدخن السيجار الفاخر ، ويجب أن يشاركه الناس في تدخينه . ويرى في التدخين وسيلة للتفكير ، ويبالغ في ذلك حتى يتساءل ماذا تفعلون إذا اردتم أن تفكروا ولم تسكن بأيديكم سيجارة ضخمة ترسل دخانها لتوقظ الفكر . واقطع عن تدخين الشيشة في أخريات حياته بناء على نصيح من الأطباء .

ومن رأى حافظاً ، ذلك الرجل الطويل الفارع الأسمر الوجه ، العريض المنكبين ، الذي بدأ حياته جندياً وانفق شطراً منها في السودان ، حسب أن بين جنبيه نفساً قوية ممتلئة بالشجاعة لا تخشى الأهوال ولا تنزع للخطوب . ولكن حافظاً لم يكن من ذلك في كثير . نعم هو لا يهاب الرجال ، ولكن يهاب الأهوال ويرجو السلامة ويؤثر العافية . وكان المرض والموت يفرغانه ويقضان مضاجعه . ويجرى هذا الخوف على لسانه وفي مجالسه وفي شعره . (وكان الخوف من الفقر بعد أن يسرت حاله تسبب

والحرص على وظيفة الدولة بعد أن تمت له ، مما يكبت في نفسه ولا يفصح عنه لسانه .) (لا فصح) وكان أحرص الناس على منزلته في الشعر ، فهو يضطرب ويشور إذا تعرض له أحد ينقد شعره علانية أو في مجتمع . وهو يكره أن يذكر له شاعر معاصر ذكر سبق وتفضيل . وكان يكره أن يستشف من آراء بعض الناس تفضيلاً لشوقي عليه أو تفضيلاً لأي شاعر معاصر عليه . وكانت في نفسه موجدة عارمة على الشاعر عبد الحليم المصري الذي نظم قصيدة في تاريخ أبي بكر الصديق بدأها بقوله :

أفضني أبا بكر عليهم قوافيا وامطر لساني حكمة ومعانيها

مقتنيا أثر حافظ الذى نظم قصيدة فى سيرة عمر بن الخطاب بدأها بقوله :

حسب القوافى وحسبى حين ألقيا أنى إلى ساحة الفاروق ازجيا
لاهم هب لى يماناً استمعين به على قضاء حقوق نام قاضيا
قد نازعتنى نفسى أن أوفيا وليس فى طوق مثلى أن يوفيا
فر سرى المعانى أن يوافيني فيها فانى ضعيف الحال واهيا

وكان حافظ يريد أن يمضى فى نظم قصائد فى سير الخلفاء ، فلما سارع عبد الحليم إلى سيرة أبى بكر ، كف حافظ. عما أراد وأطلق لسانه فى عبد الحليم . وأخذ يتساءل فى مجالسه أى فرق بين مطلع قصيدة عبد الحليم ومطلع قصيدته . هذا عبد الحليم قد سرق المعنى ولم يحسن صياغة اللفظ . وقعدت به شاعريته الضعيفة عن الانطلاق فى استلهاهم القوافى من الله ، فى لفظ . فخم ضخم كالذى توفر لى . هكذا كان يقول . والعجب العاجب فى أمر حافظ ، أنه مع هذه الخلال التى وصفنا ، ومن خلال هذا الظلام الذى يحيم على نفسه - ظلام البؤس والحرمان واليأس من خير الدنيا ومن خير الناس والخوف من الموت ومن المرض - كان اقدر أهل عصره على أن يملأ المجالس بشراً وسروراً ، حلو الفادرة سريع الخطاير فى ملاقاته النكتة ، بديع التفكير فى تشويق المعنى وتصريفه ، ليلوى به عن قصده إلى الفكاهة . بديع الخيال فى تصوير الفكاهة صورة تدعو للضحك والسخرية ، معتمدة على المبالغة الشديدة أو المخالفة الصارخة أو الانتقال المفاجئ ، وهو فى ذلك كله يجرى على ما جرى عليه طبع المصريين من الولع بالنكتة والابداع فى تصويرها تصويراً مصرياً خالصاً .

صديقه المرحوم إمام العبد ، رجل طويل اسود يقول الشعر ويتذوق الأدب ويحسن النكتة سكن فى دار ضيقه ، زاره فيها حافظ . وعاد حافظ . إلى أصدقائه يقول : « إمام العبد سكن فى بيت ضيق جداً حتى يمر عليه الحفير ليلاً فيقول له : يا إمام يا إمام دخل رجل بك جو » هذه صورة مصرية بحتة ورائعة فى قوة الدلالة .

وكان فى مجالسه الخاصة وفى أخريات أيامه ، يخاطب المرحوم خليل خير الدين وهو رجل له فى النكتة باع طويل ، يجريها على النحو المألوف فى بعض مجالس العامة

والمعروف باسم القافية . والقافية تدور حول موضوع واحد يتبارى فيه القرنان في تشقيق الأنفاظ واستقصاء المعاني التي تتصل بالموضوع المتفق عليه ، تشقيقاً يعدل بها إلى الفكاهة وإثارة الضحك . وكان حافظ يدعو صديقه خليل خير الدين ، ويقول له « خش لى قافية » . ويختار أحدهما موضوعاً كالقطار أو الساعة أو الترام ولا يزال كل واحد منهما يبتكر من النكت في الموضوع . ما يقطع نياط القلب ضحكاً ، وطالما فتر نشاط خليل وانقطع نفسه ، وحافظ لا يزال يطره نكتة بعد أخرى .

ونحن إذا علمنا أن النفس الممرورة المضطربة ، تلتبس في التندر والضحك متنفساً لكرها ، وإذا علمنا أن حافظاً قد عاش في البيئة المصرية البلدية ، وخالط الدهماء وعاشر الأوزاع ، وجدنا لهذه الخاصة في حافظ سبباً مقبولاً وباعثاً قوياً . ولكن إذا خلا حافظ عن الشعر فما كان يبيح لنفسه أن يخرج عن جادة الوقار . وما كان يحب أن ينقل عنه شعر فكاهي مازح ، وهو الحرىص على أن لا يتعرض لواحد من سهام النقد ، التي كان يترى بص له بها خصومه . والشعر الهازل لا يبلغ عادة (من الجزالة وحسن الرصف ما يبلغ الشعر الجاد) .

وحافظ الذي قلنا عنه إنه يأأس من خير الناس ، والذي قلنا عنه ما يشبهه بالحاقد على المجتمع ، والذي قلنا عنه إنه يستهين بأقدار الناس ومنازلهم ، هو الرجل الذي بلغ من الوفاء لأصدقائه ، والحب لأوائلئك الأصدقاء والحرص على مودتهم ، مبلغاً لا يجاريه فيه إلا القليلون من الأخيار . كان إذا أحب رجلاً بذل له نفسه وروحه ، وحرص على ملازمته ، ودافع عنه أشد الدفاع . وتصور له من صور السكال ما لا يحظر بهال . فإذا فجع حافظ في صديقه هذا حزن أشد الحزن وأصدق ، ورثاه من قلبه رثاء حاراً . وإذا فجع حافظ في وفاء الأصدقاء ، فتنكر له صديق أو صد عنه حميم ، أو وقعت بينه وبين صديقه جفوة ، ثار وغضب أشد الغضب ، وانطلق لسانه في المجالس والمجتمعات ينال من صديقه ما لا تنال السهام من مراميها وتفسير ذلك حين غير عسير ، فهو رجل مرفف الحس قوى العاطفة ، يتأثر لأوهى المؤثرات ، وينفعل لأهون الأحداث ، وسيظل الناس حين يذكرون حافظاً يذكرون أبرز خلاه : الوفاء للأصدقاء .

محافظ
الذي قلنا عنه

شعر حافظ

١

المدح

تعرض الشعراء في عصور مختلفة - وسيظلون - لحننة النقد والمفاضلة . وأنكى ما يصابون به اختلاف الآراء في أساليب النقد ومقاييس المفاضلة . وتطوح المرامي في تقدير الشعر ومذاهبه ، ورجف المذاهب في العصر الواحد في تذوق الشعر والحكم عليه .

ونحن في هذا العصر الذي نكاد نخضع فيه الفن والجمال لمقاييس العلم وحدوده ، لا نزال ننزع منازع الأقدمين ، فنحكم على الشاعر بالسبق أو التخلف وفقاً لهواء وآراء ومذاهب شتى ، غير واضحة المعالم ولا بينة الحدود .

ولا يزال في الأدباء والشعراء من لا يحكم بالفحولة للشاعر ، إلا إذا بكى على الطلل وشبب بسلى ، وودع هريرة . ولا يزال فيهم من لا يقر بالشاعرية لشاعر ، إلا إذا ركب الزورق ونادى للملاح ووقف على شاطئ البحيرة . وفيهم من يستمع إلى قصيدة صورت مشاعر الأمة وسأيرت إحساسها ، وسأوقت تفكيرها وانتظمت من الأخيلة أقربها إلى النفس ، واتسقت فيها من التشبيهات أدناها إلى التصور والفهم الشائع ، فلا يلبث أن يتهم الشاعر بأنه مسف نزل إلى مراتب العامة ومدارج الدماء .

وفيهم من لا يعترف للشاعر العربي بالشاعرية ، إلا إذا حاكى أحد شعراء الغرب ، واستقى من معينه وترسم خطاه ولو أبهم وأعجم واستغلق . كأن الأدب العربي ينفنا قد عدم كريم النسب وأئيل المجد ، فكان وحدا هجيناً وكان علينا أن نلحقه دعياً وغلا بأصل غربي .

بهذه الأحكام الغاشمة والأهواء المضطربة يشقى شعراؤنا ويمتحنون .
والشعر كما قلنا في مقدمة هذا البحث ، فن جميل له من الرقة والسمو وأتالة
المجد ما يرفعه عن هذه الحدود والأغلال الظالمة . فالفن تعبير لا تقدير ، والجمال يعرف
بالإحساس لا بالمقياس ، والرقة تنفر من عسر الدقة ، والسمو انطلاق وتحليق لا قيد
وتضييق . والمجد في الاعتماد بالجمال الخالد الذى يمثل فى القديم وفى الجديد .

نريد أن نعرف أين نضع حافظاً بين شعراء العربية ، وأين هو من شعراء
عصره . ولعل أيسر السبل لهذه المعرفة أو أسهلها عاقبة أن نستعرض طبقات الشعراء
ونعرض عليها حافظاً ، لنرى هل له فيها مكان ، أو أنه بعيد الصلة بها بعداً ظاهراً
أو قريب الشبه بها قرباً يعتمد به .

وغنى عن البيان أننا إذا حكمنا بقربه أو بعده عن طبقة بعينها ، فليس معنى هذا
إن كل قصائده تشهد بهذا القرب أو بهذا البعد . فالشاعر فى نقاجه الفكرى يقطع
مراحل من الزمن ومن تطور الفكر ، خاضعاً لسنة التطور . وهو فى تفكيره كالطائر
فى الجوى يعلو ويهبط ويخلق ويسف . وقد يدنو فى صباه من طبقة ينأى عنها حين
تتقدم به السن . وقد يدنو من طبقة فى باب من أبواب الشعر ، ويبعد عنها فى باب
آخر . وقد ينهج فى قصيدة منهج طبقة من الشعراء سيطرت على ذهنه إذ ذاك ، وهو
أبعد ما يكون فى قصائد أخرى عن هذه الطبقة بعينها . فأحكامنا إذا ينبغى أن
تكون عامة تأخذ بالكثرة ولا تنفضها القلة .

لم يكن حافظ شاعراً من أولئك الذين حبسوا أنفسهم على دراسة أوزان الشعر
أو علم العروض ، ليكون شاعراً فى يوم من الأيام . فهو ليس من طبقة الشعراء
المقلدين الجامدين ، وإنما هو شاعر بإحساسه وبطبعه وبانطلاق فكره من هذه القيود ،
التي كانت تقيد من سبقه من الشعراء ، فى عهود ضعف فيها الروح القومى واختفى فيها
الذوق الحى وقلت فيها وسائل المعرفة والاطلاع . فإذا أقصيناه عن هذه الطبقة ، فإنما
ندنيه من طبقة ، تسميها المجددين ، كان يتزعمها محمود سامى البارودى وتتماز هذه

الطبقة بالجزالة وجلال العبارة والتحرر من القيود . ويمتاز حافظ عن البارودي وعن اسماعيل صبرى وعن احمد شوقي بأنه وفق إلى صدق التصوير للحياة الشعبية ، وعاش في غمار العامة ، فارتسمت صورها في نفسه ورسم هذه الصور في شعره أصدق ما يكون الرسم والتصوير ، وهو بذلك من الشعراء المحدثين . وحافظ شاعر قومى يعبر عن تفكير الأمة فيما يهمها من أحداث حياتها ، وفي الوقت نفسه هو شاعر ذاتى يشكو ويرثى ويهنى ويمدح ويعبر عن خلجات نفسه . ولم يكن فى الجليل الذى عاش فيه ، من استطاع أن يجمع فى شعره بين القومية والذاتية .

وللمتبع لشعره ، يرى أنه جرى على ما ألف القدامى من إرسال الشعر فى المديح . وليس المديح من خصائص القدامى التى يتميزون بها . ولكن مديح حافظ كان من ذلك الطراز الذى يضطر فيه الشاعر أحيانا ، فى القصيدة الواحدة ، إلى الخروج عن طبعه وسجيته إرضاء للمدوح ، أو استدرارا لعطفه . ولكنه لا يثبت على هذا فلا يلبث أن يحول مديحه إلى مديح منسجم بالروح القومى ، ينزع فيه الشاعر إلى امتداح خلال اجتماعية أو مييزات قومية ، أو أعمال وطنية أو آمال شعبية تتعلق بالمدوح أو تبرز فيه أو تدعو لها مناسبة . ولذلك يخرج حافظ عن زمرة المادحين القدامى الذين كان أكثرهم مدح الرجل للشجاعة فى القتال وكرم الضيافة وسعة الجود .

بين يدينا قصيدة له يهنى بها الخديوى بالعام الهجرى نشرت عام ١٩٠٤ ، مطلعها .

قصرت عليك العمر وهو قصير وغالبت فيك الشوق وهو قدير
ويذهب فيها حافظ مذهب القدامى ، فيصور حبه للممدوح وولاءه له ، ويتعرض للحاسدين الذين يفضون من شأنه فى ساحة ممدوحه . ويعبر عن آماله فيه كما كان يفعل المتنبى مع سيف الدولة . ولكن حافظاً لا يلبث أن تغلب عليه الروح القومية فينتقل إلى آمال مصر والشرق فيقول :

جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا ومصر على آثارها ستسير

ولا يمنع المصرى إدراك شأوها وأنت لطلاب العلاء نصير
 فقف موقف الفاروق وانظر لأمة إليك بجبات القلوب تشير
 ولا تستشر غير العزيمة فى العلا فليس سواها ناصح ومشير
 وهذه قصيدته فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه نشرت فى عام ١٩٠٨
 أننى الحجيح عليك والحرمان وأجل عيد جلوسك الثقلان
 تذكرنا بما كان يقوله المتنبى لسيف الدولة إذا عاد من غزوة ، أو خرج من
 نصر أو فاته ظفر أو نسل بقوم . أقرأ قصيدة المتنبى التى مطلعها .

بغيرك راعيا عبث الذئاب وغيرك صارما ثلم الضراب
 وقف عند قوله :

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب
 وتسأل عنهم الفلوات حتى أجابك بعضها وهم الجواب
 وعند قوله :

إذا ما سرت فى آثار قوم تخاذلت الجماحم والرقاب
 وأقرأ قصيدة المتنبى التى يقول فيها :

شدنت بها الفارات حتى تركتها وجفن الذى خلف الفرنجة ساهد
 مخضبة والقوم صرعى كأنها وإن لم يكونوا ساجدين مساجد
 تفكسهم والسابقات جبالهم وتطعن فيهم والرماح المسكايد
 وتضر بهم هبأ وقد سكنوا الكدى كما سكفت بطن التراب الأسود
 وأقرأ غير هذا من شعر المتنبى ومن شعر البحتري ثم عد إلى قصيدة حافظ. هذه
 التى يهين بها عبد الحميد ويقول له :

لو أنهم وزنوا الجيوش بمشهد رجحت بحيشك كفة الميزان
 لو شاء زلزلها على أعدائه أو شاء أذهلها عن الدوران
 يمشون فى حلق الحديد إلى العدا وكأنهم سد من الإنسان

وكان مقدمهم إذا لمع الضحى سيل من الهندي والمران
يتوقعون على الردى وصفوفهم رغم الوثوب كثابت البنيان
ثم ارجع إلى المتنبي لتقرأ له :

وعلى الدروب وفي الرجوع غضاضة والسير ممتنع على الإمكان
والطرق ضيقة المسالك بالقنا والكفر مجتمع على الإيمان
نظروا إلى زبر الحديد كأنما يصعدن بين مفالك العقبان
وفوارس يحى الحمام نفوسها فسكانها ليست من الحيوان
وعد إلى قول حافظ من تلك القصيدة :

فإذا المدافع في النزال تجاوبت بزئيرها وتلاحم الجيشان
وإذا القنابل دمدت وتفجرت تحت الغبار تفجر البركان
وإذا البنادق أرسلت نيرانها طلقاً وأسباب الهلاك دوانى
أبصرت جفا في مسالخ فتية وشهدت أفئدة من الصوان
إنك لو اجدت نفس المتنبي وروحه متمثلين مسيطرين على حافظ .

ومع ذلك لا نعد حافظاً من القدامى بل هو من الحداثين . فلا يلبث بعد هذه
الحكاية المتنبي أن يثوب إلى نفسه ، ويرجع إلى طبعه فتغلب عليه النزعة القومية
أو الوطنية ، فيهنئ الأمة بوعده بالدستور ويوصيهم بأن يكونوا يوم الفخار كأمة
اليابان وأن ينقموا ظلال اللال وأن يدعوا التقاطع في المذاهب ويتسابقوا إلى الباقيات .
ويرتد من الأمة التركية إلى مصر فيرجو من شهر تموز (يولية) الذى فازت فيه
تركيا بوعده بالدستور أن يمن على مصر بمثل ما من به على تركيا .

تموز أنت أبو الشهور جلالة تموز أنت منى الأسير العانى
هلا جعلت لنا نصيباً علناً نجرى مع الأحياء فى ميدان
أيعود منك الآملون بما رجوا ونود نحن بذلك الحرمان
وخلاصة ما نرى إليه من هذه المقارنة أننا لا نعد حافظاً من القدامى ولا من
المفرقين فى تقليد القدامى وأن مديحه متسم بالروح القومى معبر عن الأمنى الشعبية .

شعر الاجتماع

أما شعر حافظ في الاجتماع فهو صورة من طبعه ومن نفسه ، يحس بآمال الأمة وآلامها . وتتصور له هذه وتلك بصورة مصرية صميمة في مهريتها . ويعبر عنها بلسانه المصري دون أن يجد في ذلك غناء ولا عسرا . لأنه لا يتناول الصورة من بعيد ، بل يتناولها من قلبه ومن إحساسه . وهو في شعره هذا جزل اللفظ رصين الأسلوب ، يتخير الألفاظ ويصطنع التعبير الذي يملأ النفس حماساً ويثير الخواطر ويلهب الشعور .

وما كان حدث من الأحداث يقع في مصر أو في الشرق ، ويتردد صدهاء في المجالس والمحافل ، حتى يتناولوه حافظ . ويطلع به على الناس في شعر ، لم يبلغ من عمق التفكير ودقة التحليل ما ينبغي أن يبلغه رجل اجتماعي أو مفكر متعمق أو دارس حصيف . لا تجد هذا العمق في شعر حافظ ، وما كان لنا أن نطالب الشاعر الاجتماعي بهذا العمق والتدقيق والتحليل . والشاعر أصالة معبر عن العاطفة والعاطفة لا تحتمل عفت العلم ودقة التحليل .

قامت في مصر ضجة حول زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، بابتنة السيد أحمد عبد الخالق شيخ السادة الوفاية . وكان الأب متردداً في الموافقة على زواج ابنته بالشيخ ، وعقد الشيخ خطبته رغم ذلك ، وعارض الأب وطلب فسخ العقد . ولعبت الأهواء السياسية في هذا الزواج لعباً امتدت آثاره إلى ساحات القضاء الشرعي . وشغل الرأي العام بهذا الحادث ، لما كان للشيخ علي يوسف من مكانة في البلاد ومن منزلة في توجيه السياسة . وادعى قوم أن الشيخ علي يوسف ليس كفئاً بنسبه وأصله للزواج من فتاة تمت إلى الأشراف أنسال الرسول بنسب . وأثبت الشيخ أنه هو

من نسل الرسول كذلك . فإذا كان موقف حافظ من الخوصومة : يؤس حافظ من أخلاق هذه الأمة المتلونة التي لا تثبت على مبدأ ، وحطم يراعه في أول بيت من قصيدته يأساً من المصريين ومن أخلاقهم ونعى على المصريين ما انغمسوا فيه من ولع بالذات وما انصرف إليه شبابهم من لهو وسرف ، والأجنبي لهم بالمرصاد يكذب ويسعى ، وأصحاب الرأي وقادة الإصلاح منقسمون شيعاً وأتباعاً والصحف من ورائهم تطن طنين الذباب :

حطمت اليراع فلا تعجبي	وعفت البيان فلا تعقبى
فما أنت يامصر دار الأديب	ولا أنت بالبلد الطيب
أنا بقية العصر إن الغريب	مجد بمصر فلا تلعبى
أفى الأزبكية مثنوى البنين	وبين المساجد مثنوى الأب
(وكم ذا بمصر من المضحكات)	كما قال فيها أبو الطيب
وشعب يفر من الصالحات	فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب	وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير	ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير	ويطنب في ورده الأعذب
وقالوا المؤيد فى غمرة	رماه بها الطمع الأشعبي
دعاه الغرام بسن الكهو	ل فجن جفونا بينت النبي
فضج له العرش والحاملوه	وضج لها القبر فى يثرب
وقالوا لصيق بيت الرسول	أغار على النسب الأنجب
فما للتهانى على داره	تساقط كالمطر الصيب
وما للخليفة أسدى إليه	وساماً يليق بصدر الأبى

لقد فات حافظاً فى هذه القصيدة ما يزدحم حول الموضوع من معانى جديدة بالتسجيل ، منها حرية الفتاة فى الزواج بمن تحب ، وتدخل الآباء فى قسر فتياتهم على

زواج من أحبوا وأرادوا . ومنها تقدير الرجال بأعمالهم وأخلاقهم لا بأنسائهم وأحسابهم ومنها تنزه القضاء عن التأثير بالأهواء والخضوع لإرادة الحكام ، ومنها غير ذلك من المعاني التي هي أهم مما ذهب إليه حافظ في قصيدته . فات ذلك كله قريحة حافظ ووقف من هذا الحادث موقف اليأس الذي نفض يديه من كل محاولة للأصلاح . وسجل على الأمة لهوها ولعبها وإسفافها في الخلق . ولكن لم يفت حافظاً أن صور في هذه القصيدة صورة واضحة لمصر ، وسجل فيها ما كان يدور على ألسنة الناس من عيوب المصريين إذ ذك . وختم القصيدة مولياً ظهره لهذا الشرق مسلماً غايه سلام المودع ، اليأس من اللقاء الفاقد للرجاء :

على الشرق منى سلام الودود وإن طأطأ الشرق للغرب
لقد كان خصماً يجذب الزمان فأجذب في الزمن الخصب

من هذه القصيدة ومن أمثالها حكموا على حافظ ، وما كانوا له ظالمين ، بأنه لم يتعمق في درس المشكلات الاجتماعية تعمق العارفين . ولم يكن إلا صدى لما نسميه الرأي العام الذي لم يبلغ ، وما كان له أن يبلغ من الرشد والدراية مبلغ العلماء الفاحصين . ولكن الشاعر صادق في الصورة التي رسمها لهذا الرأي العام . وشعره قريب إلى هذه القلوب التي يصدر عنها هذا الرأي .

وحاول حافظ في إحدى قصائده الاجتماعية ، أن يخرج عن هذه الحدود التي رسمها له طبعه ونفسه ، حاول أن لا يكون مصوراً للرأي العام وأن يمنح إلى الخيال القصصي لعله بذلك يكون مجدداً ، ولعله يكون شاعراً قصصياً ، ولعله يستحث الخواطر ويثير النفوس عن طريق التصوير لا عن طريق التعبير . فلم يوفق إلى ما أراد ولم يصل إلى غايته ، وأحسب أنه أحس بذلك فعدل عن هذه المحاولة .

وما كان حافظاً شاعراً قصصياً ولا كان غواص أخيلة وصور ، إنما كان شاعراً اجتماعياً عاطفياً يحسن تصوير ما في نفسه وما في نفوس الناس . وبضاعته في ذلك هذه الإحساسات التي يغلب بها صدره ، وهذه الشعارية التي اكتسبها بطبعه وهذه الجزالة اللفظية التي تيسرت له بمرانه ودرسه للغة .

شغل الناس في عام ١٩١١ بتأسيس ملجأ لرعاية الأطفال ، وأقاموا حفلا للقائمين بأمره ، فأراد حافظ أن يكون شاعر الحفل . ودار حول معنى واحد لا يريم عنه وهو حث الناس على البر والإحسان فرسم صورة قطار من قطر السكة الحديدية يمضي مسرعا في الليل ، فكأنه :

صفحة البرق أومضت في الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام
وأنفق في وصف القطار عشرين بيتاً حتى استفرغ جهده . وكانت تنقطع به
الأنفاس أحيانا حتى يفوته مالا يذنبغي أن يفوت حافظاً من سلاسة اللفظ وحسن
الجرس ويسر التعبير . بل كان يتعثّر حتى يقع في مثل ما تجد في هذا البيت ، من
نبو في اللفظ .

بين جنبيك ما يجنبى لكن ما يجنبى مستديم الضرام
ولو أسقط هذا البيت الذي حوى ثلاث جنوب لسلّمت له جوانب القصيدة ،
وما أساء إلى سمعنا . وبينما القطار سائر مسرع ، إذا برجل يسير على الجسر فيهبو
بين موتين محققين ، إن يسلم من القطار يقع في النهر ولكنّه :

فتردى في الماء والماء غمر يتقيه القضاء والنهر طامى
وإذا ساج قد انقضّ في الماء انقضاض العقاب فوق الحمام
وأنقذ الساجح الغريق وهنا :

وقف الناس ذاهلين وصاحوا تلك إحدى عجائب الأيام
أنجاة من القطار من الجسر من النهر جل رب الأنام
وهنا تبدو فتاة تختب في الناس فتقول لهم « تلك عقي رعاية الأيتام » . . .
وأن هذا الغريق قد أسدى إليها يداً لا تنساها :

إن هذا الكريم قد صان عرضي وحامى من عاديات السقام
عال طفلي وعالي وحباني بكساء وبدره وطعام

وأنه من رجال هذه الجمعية الذين :

وأقاموا للبر داراً فكانت خير ورد يؤمه كل ظامى
ومن هنا يرى حافظ مالا أراه فى القصيدة . ولا يبدو لى واضحاً فى معالمها
وأحداثها إذ يقول :

وعلمنا أن الزكاة سبيل الله قبل الصلاة قبل الصيام
هذه هى الصورة الحائلة المهالمة التى رسمها حافظ وهى ليست من الخيال البارع
ولا القصص الرائع فى شئ .

ولكن إذا عاد حافظ إلى نفسه وإلى طبعه ، واثقه ربة الشعر وأفاضت عليه .
فلا يكاد يفرغ من هذه الصورة الضعيفة حتى يتحول إلى نفسه وإلى بؤسه وإلى ذاته
فيجيد أياً أجادة ، فى أعقاب هذه القصيدة بعينها وكأنى به قد أحس بما فيها من
ضعف فاعتذر عنه .

لم أقف موقفى لأنشد شعراً صب فى قالب بديع النظام
إنما قت فيه والنفس نشوى من كؤوس الموم والقلب دامى
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً دون شربى قذاه شرب الحام
فتقلبت فى الشقاء زماناً وتقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً فى فؤادى ومشى الحزن ناخراً فى عظامى
فى هذه الأبيات الأخيرة تجد حافظاً كما هو على حقيقته ، وأما فيما سبقها ، فإنك
تجد حافظاً فى ثوب معار لا يناسبه ، وياليمه أسقط آخر بيت فى القصيدة .

فلهذا وقفت أستعطف النساء على البائسين فى كل عام
فان الاختتام ببيت يبدأ (بلهذه) أشبه بما يحركه كتبة العرائض والموثقون فى
ذيل رسائل الشكوى ووثائق الأحكام .

الذاتية

لم يكن حافظ يتحدث كثيراً عن نفسه ، إلا حين يريد أن يصف بؤسه وضيق صدره ، وهنا يجيد كل الإجادة . أما ما يطرقه الشعراء من أبواب التحدث عن النفس والفخر والحماسة ، فقد كان حافظ يجارى الشعراء فيه أحياناً فيكون له شعر لا يصل إلى المرتبة العليا ، ولا يعدو في عبارته ومعانيه ما ألف الناس في مجالسهم من اصطناع التواضع أو الضعف والاستكانة . ذلك بأن حافظاً كما قلنا إذا أطلق نفسه على سجيته انصرفت إلى الشعر الباكي الحزين ، فبلغت منه منزلة لم يدركها شاعر في عصره . فأما إذا حمل نفسه حملاً على التحدث عن نفسه في غير هذه المواطن ، جاء شعره أقرب إلى لغة العامة أو مجاملات المجالس .

أقرأ له هذه القصيدة فستجده غير موفق فيها ، وستجد فيها صورة غير مألوفاً له .

وهل أنا إلا إمروء شاعر	كثير الأمانى قليل النشب
يقول ويطرب أترابه	ويقنع منهم بذاك الطرب
تعلقت حيناً بذيل البيمان	وادخلت نفسى فى من كتب
فلا سبق لى فى مجال النهى	ولا لى يوم الفخار القلب
ولا أنا من علية الكاتبين	ولا أنا بالشاعر المنتخب
ولسكن سما بى عطف الأمير	ورأى الوزير وفضل الأدب
وما كنت أحلم — لولا الوزير	ر بهذا الهناء وهذا اللقب

أليس شبيهاً بلغة العامة قوله ما كنت أحلم بهذا الهناء وهذا اللقب — أما كان يجدر بحافظ أن يرتفع عن هذا في قصيدة يلقيها في حفل يقام لتسكيره بالكحول نقتال ،

حين أنعم عليه الأمير برتبة البكوية ؟ وباليته وقف عند هذا بل استمر يقول مخاطباً الوزير أحمد حشمت باشا .

على أباد له جملة وفضل قديم شريف النسب
فأننا أقال به عثرتي وأورى زنادى وأنساً وهب
تفيات منه ظلال النعيم وأصبحت أعرف لبس القصب

هذا القصب الذى يشير إليه حافظ ، هو هذه الخيوط الذهبية التى يحلى بها كساء التشريفة ، يلبسه من يحوزون الرتبة حين يمثلون بين يدي الأمير . وذكره فى الشعر غير محمود فيما أرى .

ويعود إلى مخاطبة أحمد حشمت باشا فيقول :

إليك أبا حسن أنتمى فما ذل مولى إليك انتسب
عرفت مكانى فأديتني وشرفت قدرى بدار الكتب

أما إذا انصرف حافظ إلى بؤسه ، فهناك تلقى شاعراً آخر غير هذا الذى تحدث إليك حديث العامة ، فى تلك القصيدة الشوهاء . هناك تلقى حافظاً ذلك البائس الممرور الضائق بالدنيا ، يرسل زفرات حارة تصعد فى سماء الشعر فتستوى فى أعلى منازلها :

سلام على الدنيا سلام مودع رأى فى ظلام القبر أنساً ومغناً
أضرت به الأولى فهم بأختها فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهى رياح الموت نكباً واطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطما
فما عصمتنى من زمانى فضائلى ولكن رأيت الموت للحر أعصما
فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى فإنك بعد اليوم لن تنأما
ويا عين قد آن الجمود لدمعى فلا سمل دمع تسكين ولادما
ويايد ما كلفتك البسط مرة لذي منة أولى الجميل وأنما
فله ما أحلاك فى أنمل البلى وإن كنت أحلى فى الطروس وأكرما
ويا قـدـمى ما سرت بى لمذلة ولم ترتقى إلا إلى العـزـز سلما

فلا تبطئي سيرا إلى الموت واعلمي بأن كريم القوم من مات مكرما
ويا نفس كم جشمتك الصبر والرضا وجشمتني أن ألبس الجدد معلما
فما استطعت أن تستمرئي مرطعته وما استطعت بين القوم أن أتقدما
فهذا فراق بيننا فتجملی فإن الردى أحلى مذاقا ومطعما
ويا صدر كم حلت بذاتك ضيقة وكم جال في أنحائك الهم وارتمى
فهلا ترى في ضيقة القبر فسحة تنفس عنك الكرب أن بت مبرما

هذا الشعر كما ترى ، يعلو عن تلك المرتبة التي نزل إليه شعره السابق ، في بائيته التي يشكر فيها الوزير ويذكر أياديه . هذا شعر يصور لك حافظاً أصدق تصوير ، وهو يخاطب نفسه ويصور ما بينها وبينه من خلاف ، فيما يحملها عليه من تجشم الصبر واحتمال المسكاره ، وفيما تضيق به هذه النفس من أعباء ما يحملها . ثم ما ينتهي إليه هذا الخلاف بينهما من حل موفق ، يراه هو الفراق بينه وبين هذه النفس ، ذلك الفراق الذي لا يجد حافظ أحلى منه مذاقا ولا أسعد منه حالا . ثم انظر إلى هذا الحديث بينه وبين قلبه الذي يضيق بالحوادث والكوارث . يريد حافظ أن يدلّه على ما فيه متسع ومتنفس ، فيدله على القبر يدعوّه إليه لعل فيه حل هذه الضائقة .

٤

الشعر السياسى

من العسير أن نفرق بين ما نسميه اليوم شعراً سياسياً وما نسميه شعراً اجتماعياً . ذلك ما جرى عليه الناس فى تقسيم الشعر الحديث حين يعنون بجمع شعر الشعراء ويقسمون الديوان أبواباً . فالشعر السياسى عندنا شعر اجتماعى ، والحديث السياسى إنما هو حديث مشكلة ، تعنى بها الأمة ، ولها فيها أثر ، ويتجه إليها تفكير الشعب عامته وخاصته . والشعر الاجتماعى فيه الكثير من مداخل السياسة فالتفرقة بين الاثنين عسيرة أو غير مأمونة .

ولكننا نقف عند بعض القصائد التى حوّاها ديوان حافظ فى باب السياسة ، فنجد له شعراً يتصل بالإنجليز وموقفهم من مصر ومن السودان ، والإنجليز لهم عميد فى مصر ينطق بلسان دولته ، ويتصرف بأهوائها . وله سلطان وبأس وأثر فى البلاد ، لا يمكن أن يسكت عنه حافظ . فهل كان موقف حافظ من هؤلاء الإنجليز موقفاً صريحاً واضحاً؟ وهل كانت عقيدته السياسية إزاء الإنجليز واضحة المعالم بيّنة الحدود؟... ذلك ما لا يشهد به ديوان حافظ ، ولا يمكن أن يستدل عليه بين هذه القصائد التى أطلقها فى استقبال عميد بريطانى قادم ، أو لتوديع آخر راحل . أو فى حادث نكل فيه الإنجليز بالمصريين ، أو اختلفت فيه سياسة الإنجليز مع المصريين .

نرى حافظاً مدارياً موارباً ، لا يثبت على رأى صريح واضح فى مواقفه السياسية إزاء الإنجليز . فهو تارة يلين معهم ويحاملهم ويتعقب راجياً حسن المراجعة ، كما يكون التعقب بين الأصدقاء . وهو تارة أخرى ينظر إليهم نظرة الضعيف إلى القوى ، يبهز سلطانهم حتى يكاد يهينهم بذلك السلطان ، وتهوله قوتهم حتى يكاد يرى الخضوع لهذه القوة فرضاً واجب الأداء .

يعود العميد البريطانى اللورد كرومر من مصيفه إلى مصر بعد أن وقع حادث دنشواى ، فيستقبله حافظ بقصيدة فيها عتاب هين لين ، وفيها ضعف واستخذاء ،

يفرغه حافظ في أسلوب تهكمي يحاول به أن لا يبدو الضعف ضعفاً ، ولا الاستخذاء استخذاء . ولكنه ثوب شفاف ، قال :

قصر الدبارة هل أذاك حديثنا فالشرق ربيع له وضج المغرب
أهلاً بساكنك الكريم ومرحبا بعد التحية أننى أتعجب
إلى أن يخاطب العميد فيقول :

علمتنا معنى الحياة فماذا لا نشرئ لها ومالك تفض
فى دنشواى وأنت عنا غائب لعب القضاء بنا وعزّ المهرب
نسكبوا وأقفرت المنازل بعدهم لو كنت حاضر أمرهم لم يفسكبوا

ثم ينصرف إلى ذكر حادث دنشواى ، وما فعل فيه المستشار بالمصريين ، من تعذيب وتنكيل ويعود إلى العميد فيقول :

كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصب
فاجعل شعارك رحمة ومودة إن القلوب مع المودة تكسب
وإذا سئلت عن الكفانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس أمثال الحوادث قلب

لا شك أن حافظاً في هذه القصيدة ، يتحدث بلسان الرجل الذى يلوم أمته ويرميها بالتفريط فى حقوقها ، تفريطاً جعلها لقمة سائغة للغاصب . ولكن فى حديثه إلى العميد ضعفاً غير مستور ولا مشكور . فهل كان سلطان العميد وبطشه وقوته مما قسر حافظاً على هذا الموقف وثلم سهامه التى يوجهها إلى الإنجليز ؟ ننظر فى ذلك لعلنا نجد شيئاً .

هذا العميد يوشك أن يرحل عن البلاد ويزل عنها سلطانه . فما يحافظ خوف منه ، وما به حاجة لأن يمتلئه ، أو يحسن له عقاباً أو يحسب له حساباً . بل جدير بحافظ. أن يكون صادقاً فيما يقول لا يدارى ولا يوارب ؟

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ إن كنت منشداً

هذا المطلع وحده يشهد على حافظ ولا يشهد له . ففيه اعتراف ضمني ، كما يقول رجال القضاء ، بأن ما قاله حافظ من قبل لم يكن صدقاً ولا رشداً ولم يكن وفاء بحق التاريخ ثم يقول :

لقد حان توديع العميد وإنه حقيق بتشجيع الحبين والعدا
سلام ولو أنا نسيء إلى الألى أساءوا إلينا ما مددنا لهم يدا
ولكنك تضي في القصيدة فتجد حافظاً متحفظاً ، ملائفاً أحياناً . وسعجده إن
ذكر مثالب اللورد أو محامده ذكرها على أنها من أحاديث الناس ، وليست من
ابتداعه وإنشائه :

تشعبت الآراء فيك فقائل أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة ترخص فيها تارة وتشددا

وآخر لم يقصر على المال همه يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم يا لُرْدُ معهدا
قضيت على أم اللغات وإنه قضاء علينا أو سبيل إلى الردى
هذا حديثه إلى اللورد الراحل ، وهو في هذه القصيدة أقوى منه أسلوباً وأصرح
رأياً ، منه في قصيدته التي استقبل بها هذا اللورد عند عودته من المصيف . ولم يكن
إذ ذاك مزمماً الرحيل عن البلاد . ولكن حافظاً كان أقوى في موضع آخر من هذه
القصيدة الدالية بعينها ، حين يخاطب وزراء مصر . استمع إليه يقول وقد استأسد :

فما عهد إسماعيل والعيش ضيق بأجذب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئة من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتي أبى إذا ما أصدر الامر أوردا
ويخلص من هذا إلى دفع الحرج عن نفسه والتبرؤ من كل ما قال ، فيقول :
فهذا حديث الناس والناس ألسن إذا قال هذا صاح ذاك مفهيدا

ولو كنت من أهل السياسة بينهم
ولكننى فى معرض القول شاعر
وشرعة الإنصاف تقضى بأن لا نقسو ولا نشهد فى هذا البحث ، وأن لا نغنى
بعقيدة حافظ السياسية أو بموقفه السياسى . فنحن نؤرخ لشاعر ولا نؤرخ لرجل سياسى .
ونحن نزن القول على أنه شعر وأنه فن ، ولا نزنه على أنه رأى فى السياسة أو عقيدة .
ولكن حافظاً نفسه هو الذى جرننا إلى هذا البحث . فقد عودنا على أنه إذا
استكبره على القول أو كان حذراً أو لم يكن صادقاً منطقاً فيما يقول ، لم يكن شعره
ذلك الجمال الفنى ، ولا تلك الروعة الأخاذة التى ألفناها منه حين يصدر عن عقيدة
صحيحة أو إحساس صادق . فالجمال الفنى عند حافظ مرتبط بصدق الرأى والعقيدة .
وما ننسى أننا قلنا إن شرعة الانصاف تقتضينا أن نحكم على الأشياء بما كان
يحكم عليها به فى زمانها ، لا فى زماننا . وأن نحكم عقول الماضى فى الماضى وعقول
الحاضر فى الحاضر . وهم ما يكن من شىء ، فحافظ فى شعره السياسى كان مرآة العصر
إلى حد بعيد . بل إن حافظاً على ما فى شعره السياسى من حيطة وتقية وحذر ، كان
يعبر عن آلام الشعب وآماله أصدق تعبير ، ويشهد ويعنف حين تعرض له هذه الآلام
وهذه الآمال يائساً من الخير أو مؤملاً فيه :

إلى من نشتكى غمت الليالى	إلى العباس أم عبد الحميد
ودون حماها قامت رجال	تروعا بأصناف الوعيد
رمانا صاحب التقرير ظلما	بكفران العوارف والكنود
وأقسم لا يجيب لنا نداء	ولو جئنا بقرآن مجيد
وبشر أهل مصر باحتلال	يدوم عليهم أبد الأيد
فليت كرومراً قد دام فينا	يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعد آن	بمجلود ومقتول شهيد
لنزع هذه الأكتاف عنا	ونبعث فى العوالم من جديد

هذه القصيدة التي استقبل بها العميد الحديد السير غورست ، أقوى من قصيدتيه السابقتين في توديع اللورد كرومر واستقباله في عودته من المصيف . وحافظ فيها أكثر انطلاقاً وأصرح رأياً ، وفي شعره كثير من جمال القوة أو من قوة الجمال إذا شئت . فإذا مضى الزمان وأعفيت مصر من بعض قيود الاحتلال ، وخفت وطأة السلطان الإنجليزي عن البلاد ، وكانت ثورة مصر على الإنجليز مجابهة لهم بالعداء ثم كان إعلان استقلال مصر . وانطلقنا على متن الزمان إلى أوائل سنة ١٩٣٢ ، رأينا حافظاً أشد شجاعة في مخاطبة الإنجليز وأقوى شعراً في تصوير آمال المصريين ، فهو يخاطب الإنجليز بقوله :

أخاف عليكم عثرة بعد نهضة فليس الملك الظالمين دوام
أبعد حياد لا رعى الله عهده وبعد الجروح الفاغرات وئام
إذا كان في حسن التفاهم موتنا فليس على باغى الحياة ملام
ويخاطبهم مرة أخرى فيقول :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم فمصابكم ومصابنا سيان
حاربتم أخلاقكم لتجاربوا أخلاقنا فتألم الشعبان
ويشتد في الوعيد والتهديد فيقول :
حولوا النيل وأحجبوا الضوء عنا وأطمسوا النجم واحرمونا النسيان
واملئوا البحر إن أردتم سفيننا واملئوا الجو إن أردتم رجوما
وأقيموا للعسف في كل شهر كنستبلا بالصوت يفرى الأديما
إننا لن نحول عن عهد مصر أوترونا في الترب عظام رميا

هذا حافظ إذا زال عنه الخوف ولم تخنّه الشجاعة وانطلق . ولكن في يديه غل واحد يحول بينه وبين الانطلاق ذلك هو وظيفته الحكومية . فهو يحرص عليها ، وهي تمنعه من الانطلاق في الشعر السياسي الحر المعبر عن شعور الشعب ، تعبيراً صحيحاً صادقاً . وإن لم تكن هي السبب في تعويقه عن الانطلاق إلى أبواب الشعر الأخرى كما قدمنا .

ولم يغفل حافظ هذه العلاقة القائمة بين مصر والدولة العثمانية . فما ترك حادثاً من الأحداث تهتز به أسباب الصلة بينهما ، إلا قال فيه شعراً . وهنا يختلف شعر الشاعر عنه فيما يقول من شعر يتصل بالسياسة الإنجليزية . هنا تبرز هذه الصلة الدينية التي كانت بين مصر وتركيا ، وتبرز هذه النزعة الشرقية التي تشترك فيها مصر وتركيا ، وتبدو من حافظ قوة لم نعهدها في قصائده تلك .

حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٩ ، وانتصر حزب جمعية الاتحاد والترقي التركية ، الذي كان يطالب بمنح الأمة التركية دستوراً ويطالب بخلع السلطان عبد الحميد . وكان من أبطال هذه الحركة وزعمائها شوكت ونيازي والقائد أنور . وأنشد حافظ في حفل أقيم بالأزبكية بالقاهرة قصيدة يخاطب فيها هؤلاء ، ويهنيء الأمة العثمانية بدستورها ، يقول فيها :

إذا شوكت الفاروق قام مفاديا	إلى الحق لباه نيازي وصاحبه
ثلاثة آساد يجانبها الردى	وإن هى لا قاهها الردى لاتجانبه
يصارعها حرف المنون فتلتقى	مخالبها فيه وتنبو مخالبه
روت قول بشار فثارت واقسمت	وقامت إلى عبد الحميد تحاسبه
(إذا الملك الجبار صغر خده	مشينا إليه بالسيف نعاتبه)

وفي القصيدة قوة وانطلاق وجمال فنى ، ولاكنها لا تخلو من ترسم خطى الأقدمين ، حين يتعرض الشاعر لوصف الجيش ومقارعة الأعداء وإقدام الأبطال . ولقد قلنا إن الوصف والتصوير في غير الرثاء والحزن ليسا مما يمتاز بهما شعر حافظ . ونحن لا ننسى ما قلناه من أن حافظاً كان في هذه المرحلة من حياته الشعرية ، لا يزال يترسم في بعض قصائده ، خطى الأقدمين . فلم يكن مجدداً حراً في تجديده ، فهو لا يزال يصف الجيش والحرب وآلة الحرب وصف الأقدمين لها .

رجال من الإيمان ملأى نفوسهم	وجيش من الأتراك ظمأى قواضيه
صوالجه سمر القنسا وكراته	رءوس الأعادى والحصون ملاعبه

وفي موضع آخر يحیی الاسطول العثماني فيقول :
 بالذي أجراك ياربح الخزامى بلقي البسفور عن مصر السلاما
 وتحميل ربح الخزامى سلاما كان من مذاهب الأقدمين ، وما أحسب أن شاعراً
 عصرنا يركن إليها اليوم أو يعتمد عليها .
 وبحسبنا هذا في شعره السيامي .

٥

الوصف

أجد شيئاً من القسوة فيما قاله الدكتور طه حسين عن حافظ في باب شعره
 الوصفي ، وإن كان رأينا أن حافظاً لم يكن شاعراً وصافاً ولم يكن شاعراً قصصياً .
 ولكن القسوة بادية في قول الدكتور « ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها فلم
 يسكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجعة إلى تلك الفنون الشعرية الخالصة ، التي
 تصل بين الشاعر وبين الطبيعة والتي ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان لم تكن
 النجوم في السماء ولا الرياض في الأرض ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظاً شيئاً .
 لأن حافظاً لم يكن شاعر الطبيعة وإنما كان شاعر الناس » (١) .

هذا قول فيه كثير من الحق والصواب وليس من العدل أن نقول إن الطبيعة
 لم تلهم حافظاً شيئاً ، وأن ذلك متصل بضعف ثقافته . فما هي الطبيعة ؟ أليست هي
 تلك البيئة المسكانية والشعبية والزمانية والاجتماعية التي يعيش فيها الشاعر وقد
 عاش حافظ في طبيعة ألهمته شيئاً كثيراً ، ألهمته هذه النظرة السوداء للحياة وألهمته
 هذا الأسى لاختلال الموازين الأخلاقية في أمته ، وألهمته هذا الوفاء للأصدقاء . على
 أنني أتساءل عن أولئك الشعراء الذين نريد أن نسميهم شعراء الطبيعة ، والذين ألهمهم
 النيل وألهمتهم الصحراء وألهمتهم مجالي الطبيعة ، فكأنوا شعراء الطبيعة ولم يكن حافظ
 منهم أين أولئك ومن هم ؟ والحق الذي لا أحيده عنه ، أن أدبنا العربي فقير في هذا

النوع من الشعر ، ولا أغلو إذا قلت إن الشعر تفقسه ناحية الوصف نقصاً ملحوظاً . هل كان ذلك لأن الطبيعة هادئة وادعة رتيبة لا تشور لتثير الحس ، ولا تضطرب لتوقظ الوجدان ، ولا تقسو لتحرك العواطف ؟ أم كان ذلك لأن الشرقيين يعنون بالظواهر الروحية والمعنوية للحياة ، أكثر مما يعنون بالماديات من جبال وتلال وبحار وأنهار ومروج وأزهار ؟ لست أدري السبب في تخلف شعراء الشرق عن الابداع في وصف مجالى الطبيعة ، ولكننى أدري أن ليس من الأسباب المقبولة ضعف الثقافة أو قلة الدراية أو قصور التعليم . وبين شعرائنا المعاصرين من تزود من الثقافة بقدر صالح وتفقه بأكثر من لغة أجنبية على لغته العربية ، وتمرس بمذاهب الشعراء الغربيين الذين أجادوا وصف الطبيعة وألهمتهم . ومع ذلك لم يوفقوا إلى هذا الإلهام ولم يبرزوا فى صفوف الشعر الوصفى . فليس من الانصاف أن ننمى هذا التقصير على حافظ وحده ، وليس من الانصاف أن نعزوه فى حافظ إلى ضعف ثقافته أو قلة حظه من العلم والمعرفة .

حاول حافظ أن يصف البحر وقد ركب في رحلته إلى إيطاليا ، فكان وصفه للبحر من الزاوية التى نظر منها إليه . لم يصف جمال البحر وإنما وصف هوله وإرغاءه وإزباده . وكأنه فى هذه القصيدة ، لم يعمد إلى وصف البحر بقدر ما عمد إلى وصف خوفه من البحر وكراهيته له فابتدأ القصيدة بقوله :

عاصف يرتى وبحر يغير أنا بالله منهما مستجير
وكان الأمواج وهى توالى محنقات — أشجان نفس تمور
ازبدت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور

وما أهون البحر إذا كانت ثورته كفورة القدور ، ولكننا قلنا إن حافظاً لم يكن وصافاً . ومع هذا فإذا أراد حافظ أن يصف مشهداً محزوناً وفق فى ذلك وأتى بوصف رائع محزن ، ورسم صورة دقيقة تعجب لها وتعجب من صدورها من حافظ الذى اتفقنا على أنه ليس بالشاعر الوصاف . هذه قصيدته فى زلزال مسينا

الذى وقع فى سنة ١٩٠٨ ، فائرة عند وصف البراكين والبحار وأفاعيلها ، ولكنها تقوى عندما تصل إلى ما أصاب الناس من هول وذ هول ، وقد دهمتهم النار وابتلعت الأمواج منهم جمعا :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض يفادى أمى أبى أدركانى
وفياة هيفاء تشوى على الجـ ر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل إلى النار يمشى مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصت الأرض ، اتخم البحر مما طوياه من هذه الأبدان
أما وصفه للخمر فلم يتحرر فيه من قيود الأقدمين . فقد نحا نحوهم ولم يأت فيها بجديد . ولعل أبا نواس لم يترك له فيها شيئا :

هذا الظلام أثار كامن دأى يا ساقى على بالصهباء
بالكاس أو بالطاس أو بإثنينهما أو بالدنان فإن فيه شفائى
قربوا الصلاة وهم سكارى بعدما نزل الكتاب بحكمة وجلاء
وهو فى موضع آخر يترسم خطو الأقدمين أيضا فيقول :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين هم وبين ظن وحـس
يا غلام المدام والكاس والطا س وهىء لنا مكانا كأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ دن وأملأ من ذلك النور كأسى
خرة قيل إنهم عصروها من حدود الملاح فى يوم عرس
ونستطيع أن نقول إن حافظا فى خمرياته لم يقصد أن ينظم فى الخمر قصيدة ،
ولسكنها خطرات نفس كانت تخطر له فى مجالس الأصدقاء أو فى مجالس الشراب ،
فيرسأها أبياتا من الشعر لا تستكمل ما ينبغى أن يتوفر فى قصيدة خمرية . وأبياته هذه
لا تخرج عن المداعبات التى كانت تجرى بينه وبين أصدقائه ، وكان حافظ حريصا
على أن لا تنشر بين الناس كما كان حريصا على أن لا يذشر شعره الفـكاهى .

الرثاء والشكوى

الرثاء والشكوى وما إلى الرثاء والشكوى من شعر حزين ، يعبر عن أسمى النفس ويصعد زفريات حارة صادقه كأنه قطع من هذه النفس قد صهرتها الكارثة ، تطاير تباعا غاضبة ملتبه كما يقذف البركان بما يغتلى في جوفه . ذلك هو ما بلغ فيه حافظ . مبلغا لا مطعم لغيره فيه ، ولقد درسنا حياته ورأينا كيف عاش بأنا يائسا ، وكيف كانت بيئته التي انفق فيها من شبابه صدرا كبيرا ومن كهولته ردحا طويلا . وكيف كانت هذه البيئة تطبع نفسه ، وكيف كان اختلال الموازين الاخلاقية يحز في قلبه ، واضطراب العاطفة بين الناس يؤرقه ويؤرج نار السخط والكراهية للمجتمع في هذا القلب الحزين .

وعلمنا من حيانه الأدبية أيضاً حرصه على اللفظ الفخم الضخم ، وانتقاده الدقيق للألفاظ المناسبة للمقام ، وما استقام له من قوة الرصف البياني وما كان في طبعه وذوقه مما يعينه على تخير الألفاظ التي لها جرس ونغم ، يثير الخواطر ويستفز المشاعر . فإذا اجتمع هذا كله لحافظ لم يكن عجباً أن يكون رثاؤه في الطبقة العليا من الشعر ، وأن يكون حزنه صادقا مصورا لحقيقة ما في نفسه .

كان حافظ أحرص الناس على مودة الأصدقاء ، فان فجع في هذه المودة تقطعت نفسه حسرات وكان يرى أن موت أصدقائه ليس إلا اقتطاعا لبضعة من قلبه ، تذهب مع الذاهب ولا تعود ، فهو يبكيها ويحسن البكاء عليها . وكان يرى أن آماله في الحياة قد تعطلت بأولئك الذين يرتبط بهم ويمذل الوفاء لهم ، فإن نقص منهم واحد وولى عن هذه الحياة ، فقد تحطم ركن من أركان آماله ، وقد ضاقت رقعة الرجاء الذي يعيش تحت ظلاله ، فهو يبكيه ويحسن البكاء عليه

ولكن حافظاً كشاعر اجتماعي ، كان يدعى أحياناً أو تدعوه المناسبات أحياناً لأن يرثي من ليس له في نفسه هذه المنزلة . أو أن يرثي من لم تأس نفسه على فراقه أو تبتئس بوفاته . فهل كان شعره إذ ذاك في مرتبة من السمو تداني تلك المرتبة التي وصفنا ؟ إنك تستطيع من قراءة مراثيه أن تتبين منزلة الراحل من نفسه ، فإن وجدت شعراً قوياً حزيناً حكمت بأن الراحل كان صديقاً محبباً لحافظ وإلا فلا .

أما سبيله في الرثاء فتخالف سبيل الأقدمين في كثير من الوجوه . وأخصها أن الأقدمين كانوا يفترضون أن المسكارم كلها قد اجتمعت في الراحل فمن لهذه المسكارم بعده ، يفترضون أن الكرم والشجاعة وما إلى الكرم والشجاعة من خلال كانت ممثلة في الراحل ومضى زال عن الدنيا فقد نضب معينها منها .

أما حافظ في رثائه الصادق ، فقد كان يطوف بهذه المعاني في رفق وأناة ثم ينصب على تحليل الصفات والخلال المعهودة في الراحل ويأسى لفقدانه . لا لأن هذه الخلال لم يعد لها من تيمثل فيه ، بل لأن هذه الخلال قد رزئت بفقدته ، والفرق واضح بين المذهبين . ثم يرجع حافظ إلى نفسه فيصور أساها ويلتفت إلى الدنيا فيصور أذاها . وقل أن يغفل ذكر الموت الذي يرى شبحه يدنو منه كلما رحل عن الدنيا صديق له . كأن هؤلاء الأصدقاء وهؤلاء الرجال كانوا حائلاً بين حافظ والموت ، فكلما اخترم واحد منهم ضعفت جبهة الدفاع عنه . وحافظ يحسن تصوير الحزن ، أكثر مما يحسن تصوير الرزية أو الفاجعة . وما في ذلك من عجب ، فهو قد ألّف الحزن وعرفه فهو قديم في نفسه . أما الفاجعة التي يقف عندها فهي جديدة تتجدد برحيل الراحلين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم من نفسه ، ومن الأمة التي هم منها .

ولعل أصدق ما يعبر به عن أسباب تفوق حافظ في الرثاء ، ما قاله عنه الدكتور طه حسين : ^(١) « هذا أحد الأمرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ . حس قوى

دقيق وخلق رضى كريم . فأما الأمر الآخر فصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية
السكرية وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا . . . « إلى أن قال
« لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة
نفسه ولحياة شعبه كحافظ رحمه الله . فالذين يقرءون شعره الآن يؤخذون بهاتين
الصورتين الواضحتين كل الوضوح صورة الشعب وما يجد من ألم وأمل، وصورة حافظ
وما يحس من يأس أو رجاء » هذا كلام صحيح وتصوير واضح صادق لشعر حافظ
الجزين والحزن حافظ. الشاعر .

وهذه قصيدته في رثاء الأستاذ الإمام استشهد بها الدكتور طه حسين ، فارجع
إليها تجد فيها جمالاً وروعة وصدقاً .

قلنا إن حافظاً في مراثيه يحسن تصوير الحزن أكثر مما يحسن تصوير الفاجعة .
وها هو ذا يرثى مصطفى كامل في حفل الأربعين فتمر بأبيات القصيدة من مطالعها ،
فتجد فيها رثاء قوياً شديداً . ولكن إذا انتهى الشاعر إلى حزنه وإلى نفسه كان
أقوى وكان أشد .

قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيل دافق وشرار
أسعى فيأخذنى الالهيب فأثنى فيصدنى متدفق التيار
لو لم ألد بالنعش أو بظلاله لقصيت بين مراحل وبحار
ولا تؤخذ عليه هذه المبالغة كما تؤخذ على الشعراء في بعض الشعر ، فهي مبالغة
خفيفة الظل مقبولة .

وقد قلنا إن حافظاً كان يرى في موت أصدقائه إنذاراً بدنو أجله . وقد ذكر
هذا في قصيدة أنشدها في حفل أقيم لذكرى الأستاذ الإمام عام ١٩٢٢ :

أذنت شمس حياتى بمغيب ودنا المنهل يا نفس فطيمى
أن من سار إليه سيرنا ورد الراحة من بعد اللغوب
قد مضى (حفى) وهذا يومنا يتدانى فاستشيبى وأنيبى
وارقبه كل يوم إنما نحن فى قبضة علام الغيوب
اذكرى الموت لدى النوم ولا تغفل ذكركه عند الهبوب

وذكر حنفى ناصف فى هذا المقام له سبب تحدث به الأدباء . ذلك بأنه لما توفى الشيخ محمد عبده رثاه على القبر ستة أولهم الشيخ احمد أبو خطوه ثم حسن باشا عاصم ثم حسن باشا عبد الرازق الكبير ثم قاسم أمين بك ثم حنفى ناصف ثم حافظ . ابراهيم . واتفق أن مات الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم للرثاء ، ولاحظ ذلك المرحوم حنفى ناصف . وكان أن مرض حافظ . فعاده حنفى ناصف وكتب له هذه الأبيات وفيها من رقة حنفى ما عرف عنه :

أذكر إذ كنا على القبر ستة	نعد آثر الإمام ونندب
وقفنا بترتيب وقد دبّ بيننا	مات على أثر الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقافاه عاصم	وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم	وعما قريب نجم بحياى يغرب
فلا تخش هلكا ما بقيت وإن أمت	فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف	ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا	فإن المنايا عنك تنأى وتهرب

وقد كان أن مات حنفى ناصف رحمه الله فأصبح حافظ خائفاً يترقب وفى ذلك

يقول من تلك القصيدة :

قد وقفنا ستة نبكى على	عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا	هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعا فمضوا	بانفاق فى منايهم عجيب
أنا مذ بانوا وولى عهدهم	حاضر اللوعة موصول الفحيب
هدأت نيران حزنى هدأة	وانطوى حنفى فعادت للشبوب

ومن ألم بشعر حافظ الحزين ، استوقفته هذه القصيدة التى قالها فى رثاء المغفور له سعد زغلول باشا . وقد كان سعد يحب حافظاً ويأنس لمجلسه وبقره منه . وكان حافظ يذكر سعدا ويحبه ، ولو أن حافظاً كان يميل إلى الأحرار الدستوريين الذين

كان بينهم وبين سعد جفوه وكان زعيم الأحرار الدستوريين المغفور له محمد محمود باشا صديق حافظ وابن من له عليه أياذ يذكرها ولا ينساها .

مات سعد زغلول في أغسطس سنة ١٩٢٧ وأقيم حفل لتأبينه وكان حافظ يسكن إذ ذاك في حلوان . فرأيتُه عند الأصيل يمشى في حديقة منزله يرسل أنغاماً حزينة كأنها أنات المريض أو زفرات الحزون ، فقطعت عليه هذه الأنات أسائله عما به فيقول رثيت سعداً بأبيات أعجبتني ولكن مطلع القصيدة لم أوفق إليه بعد ، وأخذ يسمعي قوله :

بلغ المشرقين قبل انبلا ج الصبح أن الرئيس ولى وغابا
وانع للغيرات سعداً فسعد كان امضى في الأرض منهاشها
قد يا ليل من سوادك ثوبا للدرارى وللضحى جلبابا
ثم سكت طويلا وهو لا يزال يمشى في حديقة وامشى معه . ثم أخذ يقول بصوت عال إيه .. إيه .. يكررها كالمكروب الذى لا يجد لكرهه متففساً .
ثم وقف وقال ها هي .. ها هي .. جاءت ..

إيه يا ليل هل شهدت المصابا كيف ينصب في النفوس إنصبابا
ووقف ثم نظر إلى وقال « قللى بربك ما رأيك في قولى ينصب في النفوس
إنصباباً . هذا المفعول المطلق أليس بليغاً . فضحككت منه ثم تلا على بعض أبيات القصيدة وهو معجب بالمطلع . رحمه الله لقد كان معتداً بشعره معتداً بقدره بين الشعراء .

وقلنا إن حافظاً كان يحسن وصف الحزن أكثر مما يحسن وصف الرزية
أو الفاجعة . استمع إليه في هذه القصيدة بعد ذلك المطلع الرائع وبعد أن انصرف إلى مخاطبة الليل يقول .

قد يا ليل من سوادك ثوبا للدرارى وللضحى جلبابا
انسج الخالسات منك نقابا واحب شمس النهار ذاك النقابا

قل لها: غاب كوكب الأرض في الأر ض فنبى عن السماء احتجابا
والبسني عليه ثوب حـداد واجلسي للعزاء فالـحـزن طابا

ولقد عاب بعض النقاد على حافظ أن هذا الخيال شعبي عامي مبتذل ، وأنه تصوير لمشهد لا ينبغي أن يسف إليه شاعر فحل . ولست أرى فيه شيئاً من ذلك ولا أرى في تصوير الحزن كما يقع الحزن في نفس العامة ولا في تصوير مجالس العامة الحزينة كما ألغها الناس عيياً ولا إسفافاً في الشعر . على أن هذا المعنى لم يكن جديداً من حافظ ، وهذه الصورة لم تسكن مبتكرة . فقد سبقه إليها ابن زيدون ولكن حافظاً كان ابلغ تصويراً وأدق . قال ابن زيدون .

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلى ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهـلا أقامت أنجم الليل مأتماً لتندب في الآفاق ماضع من ثلى
انظر إلى حافظ في هذه القصيدة وقد أذهله المصاب وأذهل شعره السامعين ، فانطوا معه في الدهول وجرفهم في تياره العنيف :

اين سعد فـذاك أول حفل غاب عن صدره وعاف الخطابا
لم يعود جنـوده يوم خطب إن ينادى فـلا يرد الجوابا
عل أمراً قـد عافه عل سقما قد عراه لقـد أطل الغيابا
أى جنود الرئيس نادوا جهاراً فإذا لم يجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التي كفت أخشى أنها الساعة التي كفت أبى
إنها اللفظة التي تنسف الأنف س نسفاً وتقفر الأصـلابا

ويخاطب حافظ الإنجليز في هذا الرثاء ، فيعود إلى ماسبق له أن خاطبهم به في شعره السياسي ، الذي أسلفنا الحديث عنه حين قال لهم :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عفا واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملئوا البحر إن أردتم سفينا واملئوا الجو إن أردتم رجوما

ولكنه اليوم يقول لهم في مرثية سعد :

فأحجبوا الشمس وأحبسوا الروح عنا وامنعونا طعامنا والشرابا
واسـتشفوا يـقيننا رغم ما نـد قى فهل تـلـحـحون أرتيـابا
قد ملـكـتم فـم السـبـيل عليـنا وفتحتم لـكل شـعـواء بابا
وأنتيم بالـخـائـمات تـراى تحـمـل المـوت جـائـماً والـخـرابا
وملاـئـم جـوانـب النـيل وعداً ووعداً ورحمة وعـذابا
هل ظفـرتم مـنـا بـقـلب أبى أورأيتم مـنـا إليكم مـثـابا
لا تقولوا خلا العرين ففيه ألف ليث إذا العرين أهابا
فأجمعوا كيدكم وروعوا حماها إن عند العرين أسدا غضابا
وهو هنا أقوى وأبلغ ما فى ذلك شك .

٧

فكاهة حافظ

فإذا خلا إلى مجالس أصدقائه فهو رجل آخر ، رجل مرح طروب يرسل الفكاهة فى سرعة وبراعة . حاضر الذهن لها يتلقفها من كل لفظ ومن كل معنى ومن كل شئ . يملأ المجلس بشراً وسروراً حتى تسكاد لا تصدق أن هذا الرجل هو حافظ إبراهيم ، شاعر مصر الحزين ، ولكن هو بعينه . فهذه الحياة التى حياها حافظ ، وهذا البؤس الذى امتحن به ، قد استحالوا فى نفسه الى سخرية بالحياة واستهانة بقيمها . ووجد لها متنفساً فى مجال الفكاهة التى طبع عليها المصريون وأولعوا بها واشتهروا بالبراعة فيها .

خافظ فى مبادئه وفى مجالسه وفى تندرته رجل مصرى ، كما هو فى شعره شاعر مصرى . ولكنه حرص على أن لا يظهر هذه الروح المرحية فى شعره لأنه يخشى نقد الناقدين . والشعر الفكاهى لا يحتفل تلك القيود التى ياتزمها الشعر الجاد ، ولا يتقيد

بالبلاغة والسمو اللذين يتقيد بهما الشعر في غير مواطن الفكاهة والدعابة . وما أثر عن حافظ . من الشعر الفكاهة إنما كان أغلبه حديث مجالس لم يقصد حافظ أن يؤثر عنه أو يدون له في ديوان . وإنما تلقفه أصحاب حافظ وتذكروه إعجابا بظله الخفيف ونسجه الرقيق على أن هذه الروح كانت تبدو منه أحيانا في شعره الذي جمعوه في باب من ديوانه اسموه باب الأخوانيات .

وكان حافظ . يجرى في ذلك الشعر على طبعه . فلورجعنا بالذاكرة إلى حياة حافظ . لذكرنا مخالطته في طنطا لل دراويش وادعياء الطريق والمجازيب ، وتندرهم . هذه الصورة لا تزال في نفس حافظ . يذكرها ولو عمد إلى القول في غير باب التندر والفكاهة .

أخرق الدف لو رأيت شكيبا وأفض الأذكار حتى يغيبا
هو ذكرى وقبلتى وامامى وطيبى إذا دعوت الطيبيا
فسلوا سبحتى فهل كان تسبيحى حى فيها إلا شكيبا شكيبا
وإذا ادنف الشيوخ غرام كفت فى حلبة الشيوخ نقيبيا
وينظر إلى بعض العلماء الذين يستعينون بكبر العامة ، على الرفع من أقدارهم فى أنظار العامة وهم لا يمتقون إلى العلم بصلة فيقول :

كم عالم مد العـلوم حباثلا لوقية وقطيمة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا أن الذى يدعون خدن شقاق
وتمثل البيئة الأزهرية التى خالطها حافظ . فى صباه فى القاهرة وطنطا ، فى هذه الدعابة التى داعب بها حفى ناصف ، وكان حفى فى مستهل دراسته طالبا بالأزهر وألقاها قصيدة فى حفل أقيم بطنطا لتسكريم حفى ناصف ، حين انتقل من القضاء إلى تفتيش المعارف عام ١٩١٢ ، يقول فيها :

فكل رب يراع في مصر خريج حنفى
 إن قال شعرا فراح تدار في يوم دجن
 أو قال نثروا فروح يحة—ازنا غب مزن
 فإن بدأت بقول منه فبالكأس ثن
 وطراى اللهو وارغب عن حكمة المقانى
 لولا الحياء ولولا دينى وعقلى وسنى
 لقمتم فى يوم حنفى أدعوا لسكرة بنى

إلى أن يقول :

لا تنس عيشا تولى ما بين شرح ومتن
 ولّى شبابك فيه ما بين مدّ وغن
 وذقت من (جاء زيد) ومن شروح (الشمى)
 ومن حـواش الحواشى على متون (ابن جنى)
 ما لم تذقك اللىالى قلبن ظهر الجن
 أيام (سلطان) يلهو بمشه ويغنى
 يبيت يقصع ما لم أسمه أو أكنى
 يشكو إليك وتشكو إليه عيشة غبن
 أيام يدعوك حنفى من الحياة أجرنى
 هات المسدس إنى سئمت مشى وجبنى
 من لى بدرهم لحم عليه حبة سمن
 قرمت والله حتى صاحت عصافير بطنى
 أيام عيدك يوم تفوز فيه بدهن

هذا الشعر الخفيف يداعب فيه حافظ صديقه حنفى ناصف ، ولكنه لا يلبث
 أن يعود إلى وقاره وإلى نفسه الحزينة فيقول :

أخشى عليك المذايأ حتى كأنك منى
وإن عـراك هزال هيات لحدى وقطنى

يشير إلى تلك القصة التى ذكرنا فى ترقب حافظ الموت بعد موت حفى ، جريا على الترتيب الذى وقفوا به على قبر الأستاذ الأمام .

وما أحسب أن حفلة التكريم التى أقيمت فيها هذه القصيدة ، إلا كانت مجاسا لأصدقاء وخلصاء لحنى وحافظ . وإلا فلو كانت من تلك المجامع الحافلة بالأدباء والشعراء وكبار الرجال ، لما سمح حافظ لنفسه أن يلقى فيها هذا الشعر الفكاهى . أما حسن دعابته فى شعر جيد رصين ، فيتمثل فى هذه الدعابة التى وجهها إلى الدكتور محبوب ثابت ولها قصة . كان الدكتور محبوب ثابت طبيباً متقدماً فى السن وله نصيب فى أحداث السياسة والاجتماع الجارية فى عصره . وكان يعنى عناية خاصة بالسودان ، وكان إذا تحدث فى السياسة طوح بالحديث فى جوانب متعددة كأنه عليم خبير بسياسة العالم كله . وكان ينطق بالقاف فى كلامه العامى على غير عادة المصريين ، ويكثر من استعمال الألفاظ ذات القاف . واشتهر بالترخى فى العناية بعادته الطبية وصرف همه للسياسة ، يسعى عن طريقها إلى اقتعاد مكان بين نواب البرلمان .

وكان خفيف الظل حلو الحديث وله بحافظ ومجالسه صلة وثيقة . استضافه سعد زغلول فى منزله الريفى بصحبته حافظ وآخرين ، وفى الصباح جالس سعد وصحبته إلى مائدة الإفطار وتخلف الدكتور محبوب ثابت وطال انتظارهم له . ثم حضر فسئل عن سبب تأخره فأجاب بفكاهته المبهودة بأنه كان يحلم حلماً وتغوى عن الحضور حتى ينتهى الحلم . فطلب منه سعد أن يقص عليهم الحلم فقال « رأيتنى راكباً ثوراً كبيراً وأخذنا بقرنية والثور يجرى بى جرياً سريعاً ومن خلفه عدد كبير من الخمر » فقال سعد زغلول « فسر لنا هذا الحلم يا حافظ » وكان حافظ يعتقد فى دلالات الأحلام . فقال مفسراً « أما الثور الذى يركبه الدكتور فهو كرسي فى مجلس

النواب . وأما أخذه بقرنية فزوجة يتزوجها الدكتور » قال سعد « فما هذه الجمير التي تجرى وراءه ؟ » قال حافظ « أولئك هم الفاخبون » وانفتل حافظ من الإفطار ونظم قصيدته في هذا الحادث وهي من أعذب الشعر القوى المتين ومن أدل شعر حافظ على روحه وخفته وسرعة خاطره ومصريته في النكتة .

يرغى ويزبد بالقافات تحسبها	قصف المدافع في أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها	من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلكها	واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحجا حينما ويحضره	حينما فيخلط مختلا بموزون
لا يأمن السامع المسكين وثبته	من كردفان إلى أعلى فلسطين
بيننا تراه ينادى الناس في حلب	إذا به يتحدى القوم في الصين
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل	لكنها عبقریات الأساطين
يببت ينسج أحلاما مذهبة	تغنى تفاسيرها عن (ابن سيرين)
طورا وزيرا مشاعا في وزارته	يصرف الأمر في كل الدواوين
وتارة زوج عطبول خد لجة	حسفاء تملك آلاف القدادين
يعنى من المهر اكراما للحميته	وما أظلمه من ديننا ومن دين

٨

أسلوب حافظ

كان حافظ من أشد الشعراء حرصاً على اختيار اللفظ وتذوق الجرس الذي يقع في أذنه وفي نفسه حين يختاره . وكان حرصاً على أن تكون الفاظة فخمة ضخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف . وكان أشد ما يكون حرصاً على ذلك في مطالع قصائده، يسمى وراء اللفظ فإن لم يجد فيه القوة التي تثير، احتال على ذلك بالتكرار . يكرر اللفظ الواحد أو الجملة الواحدة، مرة وأكثر من مرة؛ ليشير السامع ويسترعى انتباهه، ويجرفه معه في تياره ويملك عليه عواطفه بصرفها كما يشاء . وما أكثر ما تصطبغ مطالعه بالصبغة الدينية . يستعمل ألفاظ الدين ليجذب بها القلوب ويتصيد بها المشاعر وهو يعلم أن الصيغ الدينية لها في القلوب وفي الأسماع نغم محبوب جذاب .

وكان حرصاً هذا الحرص في اختيار القافية المناسبة للموقف فإذا، كان الموقف حزينا أو رهيباً أو جليلاً اختار له هذه الألف التي يمتد بها الصوت ويصعد على طولها ، متعلقة به الأسماع والأذان ، كما فعل في مراثية سعد وفي غيرها .

وقد مثل تكراره للفظ واستعمال الصيغ الدينية قوله :

هنا جنان تعالى الله بارئه ضاقت بآماله الأقدار والهمم
هنا فم وبنان لاح بينهما في الشرق فجر تحيي ضوءه الأمم
هنا فم وبنان طالما نثرا نثراً تسير به الأمثال والحكم
هنا الشهيد هنا رب اللواء هنا حامى الذمار هنا الشهم الذي علموا
سبع مرات يكرر لفظ هنا ليوقظ السامع وليأخذه معه في عمرة انفعاله :
سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجبا على البر والتقوى على الحسنات

ومن أحسن الأبيات في هذه القصيدة :

ووقفت بين الدين والعلم والحجبا فأطلعت نورا من ثلاث جهات
ومن المثل لاستعماله الصيغ الديدنية قوله :

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبني روحاً يحف بها الإكبار والعظم
أرى جلالاتى نورا أرى ملكا أرى محييا يحيننا ويمتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوه تحيته من القلوب إذا لم تسعد السكلم

وقد اكتسب حافظ بطول المران وكثرة الاطلاع ، حاسة تدله على أصالة اللفظ
في اللغة وعلى دلالاته الدقيقة . فقل أن تسأله عن معنى حتى يدلك على اللفظ العربي
الأصيل المعبر عنه ، ثم يسرد ما له من مرادفات . ثم يبين لك ما بين هذه المرادفات
من فوارق دقيقة نحيفة ، قل أن يدركها غير حافظ . ممن تمرسوا بفقهاء اللغة .

نثر حافظ

ليس بين أيدينا من نثر حافظ شيء يعتد به غير ترجمته لكتاب «البؤساء» عن الفرنسية . وقد قلنا إن حافظاً لم يكن ضليعاً باللغة الفرنسية وإن من أصدقائه من كان يعينه ويترجم له . ولذلك فالنظر في ترجمة حافظ للبؤساء ينبغي أن يكون من ناحية أسلوبه العربي ؛ وليس من ناحية المطابقة بين الأصل المترجم عنه ، والترجمة العربية .

فأما أسلوب حافظ في هذه الترجمة ، فمن أرفع أساليب النثر . تقرأه فلا تشعر فيه بهذه الـكـنـة أو العجمة أو النبو ، التي يضطر إليها المترجمون إلى العربية أحياناً لتأثرهم بالأصل الأجنبي وعجزهم عن إلباس المعنى الغربي لباساً عربياً صريحاً صحيحاً يقع في هذا الحرج كثير من المترجمين ومنهم الضليع في العربية ، ولكنه حين يترجم يتغلب المعنى الأجنبي على تفكيره حتى ينسيه الأسلوب العربي . لأن هذا المعنى الأجنبي قد يكون جديداً على الفكر العربي ، ولذلك يحتمل المترجم على تطويع العبارة العربية وفق له . فتصدر العبارة وعليها مسحة أجنبية ينفر منها الذوق العربي . أما حافظ فلم يقع في هذا الحرج في ترجمته للبؤساء مطلقاً . بل إنك لتقرأ الكتاب بجزئية ، فلا تشعر بأن هذه ترجمة عن لغة أجنبية . ولكن أسلوب حافظ في جزء كبير من أول الكتاب ، كان أسلوباً فيه شيء من الألفاظ الغريبة على أسماعنا . حتى لقد قيل إن قارئه لا يستغنى عن الاستعانة بمعجم عربي ليفهمه . نعم تعتمد حافظ ذلك في جزء كبير من أول الكتاب ، ولكنه لم يثبت على ذلك وعاد إلى المألوف المعروف . ويلاحظ أنه استعان كثيراً ببعض العبارات والألفاظ القرآنية ، أدخلها في أسلوبه مدخلاً حسناً محموداً .

أما الأسلوب كله وبوجه عام ، فأقرب إلى الجدة منه إلى القدم . وهو في بعض مذهبه أدنى إلى أسلوب رسائل صاحب بن عباد ، بل إن كثيراً من ألفاظه صاحب تقع لك في الترجمة الحافظية إن بحثت عنها .

وفي رسالة منه إلى الأستاذ الإمام محمد عبده بعث بها إليه من السودان ، نثر يتخلل الشعر . بحسبك أن تقرأ أوله « كتابي إلى سيدي وأنا من وعده بين الجنة والسلسيل ومن تيهي به فوق الفثرة والأكليل . وقد تعجبت السرور وتسلفت الحبور . . . الخ » ، لتعلم أنه كان في هذا الأسلوب مقلداً للقدماء مترسماً خطاهم لا يخرج عن أسلوب ابن زيدون في رسالته الجدية والهزلية ، إلا ليدخل في أسلوب الحريري ويتمحدث بلسان السروجي . أو ليطاع علينا بروح بدیع الزمان الهمداني .

ليس في هذا النثر شيء من طبع حافظ ولا من روحه . وما كان حافظ ليكتب نثراً بهذا الأسلوب ، وهو صاحب الشعر الميسر السلس العذب . ولكنه حمل نفسه على غير سجيته مقلداً وعامداً . وأراد أن يطلعك على علمه باللغة وألفاظها الغريبة عليك ، وعلى علمه بالتاريخ العربي القديم .

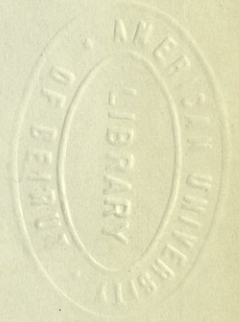
« وجمعت فيه بين ثقة الزبيدي بالصمصامة والحارث بالنعامة فلم أقل ما قاله الهذلي لصاحبه حين نسي وعده وحجب رفته : يا دار عاتكة التي أتزل « بل أناديه نداء الأخيذة في عمورية ، شجاع الدولة العباسية . . . الخ » وما يحسن بنا أن نمضي في هذا النثر المعقد الممجوج .

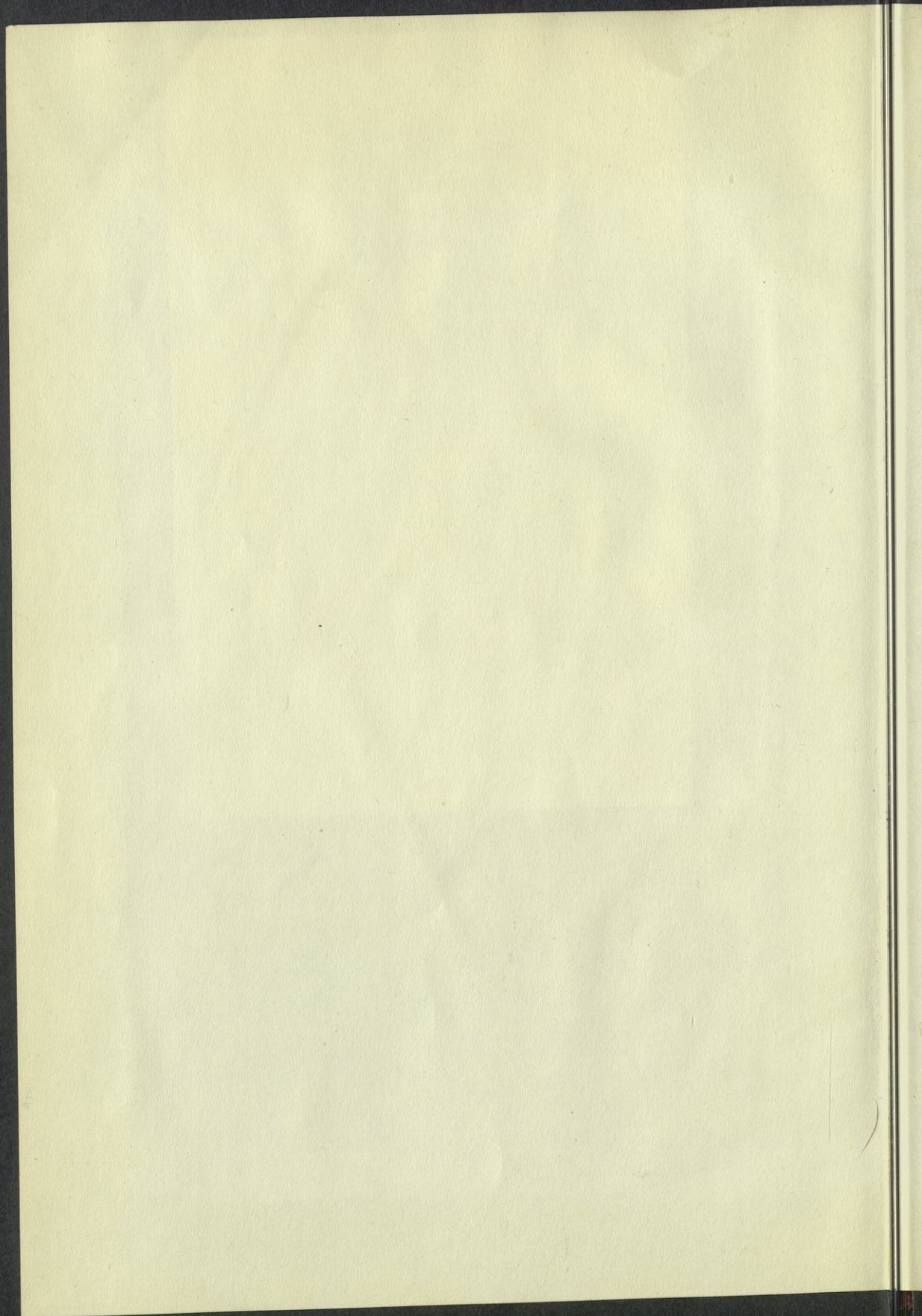
وأنف حافظ في صباه كتاب « ليالي سطيج » نحا فيه منحني وأسلوباً مسجوعاً لعل أقرب صورة إليه ، وأقرب أسلوب له ، حديث عيسى ابن هشام . وهو فيه مقلد للقدماء بعيد عن المحدثين ، حريص على اللغة وألفاظها ، أكثر من حرصه على المعاني والصور والأخيلة العالية .

وبعد، فهذا حافظ صورناه بقدر ما عرفناه وعرفنا شعره ، وأوفى ما يقال فيه إنه شاعر مصري بكل ما تتحمل المصرية من معان وإنه في الشعر الحزين من أقوى الشعراء وإنه شاعر فحل جزل اللفظ جميل الأسلوب . رحمة الله عليه .

الفهرس

٧ - ٣٠	دراسة الأدب الحديث
٣	غايقتنا
٦ - ٤	أدبنا الحديث
٧ - ٦	دراستنا
٢٨ - ٨	حياة حافظ
٦٣ - ٢٩	شعر حافظ
٣٣ - ٢٩	المدح
٣٨ - ٣٤	شعر الاجتماع
٤١ - ٣٩	الذاتية
٤٨ - ٤٢	الشعر السياسي
٥٠ - ٤٨	الوصف
٥٧ - ٥١	الرثاء والشكوى
٦١ - ٥٧	فنكاهة حافظ
٦٣ - ٦٢	أسلوب حافظ
٦٥ - ٦٤	نثر حافظ





DATE DUE



معهد الدراسات العربية العالية
محاضرات عن حافظ ابراهيم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01035014

American University of Beirut



General Library

892.71
I14YtA